الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم اللغة العربية و آدابها

رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم

سجل تحت رقم 1486
بتاريخ 27 ماي 2008
الرقم :

بعنوان :

النزعة الأخلاقية في الشعر الجزائري القديم

- العصر الزياني نموذجا -

(633/962هـ)

من إعداد الطالب :
سيدي عبد الرحيم مولاي البوخيلي

تحت إشراف الأستاذ الدكتور :
محمد مرتاض

السنة الجامعية

1421 هـ / 2000 م

سجل تحت رقم 1118
بتاريخ 27 ماي 2008
الرقم

الإهداء

إلى الذي خلقني فأحسن خلقي و إلى كل من دان بعقيدة الواحد المبجل ؛

ثم إلى الشجرة الفاضلة التي أظلت علي بظلها الدافئ تسعا و عشرين سنة و نيف و لا تزال . . . إلى والدي الكريمين و إلى أرضي وطني الأم و خيار أهلها ، إلى حقل العلم و العلماء و المختصين أهل الأدب ، إلى كل الطلاب و القراء و الأصدقاء ، إلى قسم اللغة العربية و آدابها بتلمسان

. . . إلى أستاذي المشرف الفاضل الدكتور : محمد مرتاض . . . أهدي إليكم ثمرة جهد متواضع ، عبارة عن رسالة تخرج من قسم اللغة العربية و آدابها ، لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم ، و لا أنسى أن أهدي هذه الثمرة إلى الأخ الدكتور حمزة الشريف علي أستاذ بقسم علم الاجتماع بجامعة وهران.

م.ب.س.ع.ر.

الشكر والتقدير

و قد أهديت في كلامي السابق كتابة هذه الرسالة إلى أستاذي الدكتور : محمد مرتاض ، فلأنه أول من يستحق الشكر بامتنان و احترام و تقدير ، نظرا للمجهودات العظيمة التي بذلها و هو يؤازرني في البحث مصححا ما وقعت فيه من أخطاء ، و مذللا أمامي كل صعوبة اعترضتني في هذه الدراسة بخاصة و أنه جاد علي بتصويباته و توجيهاته المتكررة إلى درجة الكلل. و أنا أعترف بتعبه و أسأل الله أن يجازيه خيرا على كل ما قدمه إلي من خدمة شريفة إزاء إشرافه على رسالتي هذه.

م.ب.س.ع.ر.

المقدمات

- (ص) : صلى الله عليه وسلم
- (ر) : رضي الله عنه.
- (-هـ) : سنة الوفاة بالهجرية
- (د.ت) : دون تاريخ
- ج : الجزء
- مج : المجلد
- م : المصدر
- م.ن : المصدر نفسه
- ج.ن : الجزء نفسه
- مج.ن : المجلد نفسه
- م : المرجع
- م.ن : المرجع نفسه
- ص : الصفحة
- ص.ن : الصفحة نفسها
- ط : الطبعة
- م : الميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الموضوع الذي تناولته في هذه الدراسة هو عبارة عن قضية إنسانية ارتبطت بالإنسان منذ القديم وكانت على صلة وثيقة بسلوكاته الباطنة والظاهرة، أي إن القضية التي تشكل موضوع بحثي ودراستي هي النزعة الأخلاقية وهي قضية إنسانية لها طابع ذاتي بحكم أن لها علاقة بالذات لا غير أو أنها ذات طابع اجتماعي، بدليل أنها صفات اجتماعية صرفة أو هي عبارة عن مختلف السلوكات المتبادلة بين الذات ومجتمعها .

وعلى هذا الأساس دلتنا الدراسات القديمة على الدور الذي أنجزه الفكر اليوناني ومن بعده الفكر الروماني في التنظير للأخلاق، حيث اشتهر أفلاطون بنظريته المثالية التي مست الجانب الأخلاقي في خضوعه للمثالية التي أثرت عن هذا الفيلسوف، فعدلها تلميذه أرسطو، ثم اقتفى غيرهما آثارهما باتباع نظريتهما أو بإضافة جديد إليهما .

وكان أن اشتهر من بعدهما الرواقيون والأبيقوريون ثم جاء "سدني" الروماني فألف بين النظريات السابقة في نظرية أخلاقية بلغت ذروتها في الدراسات الفكرية الأجنبية القديمة ولا نضيف جديدا إن تعرضنا إلى ماهية القضية الخلقية وخصائصها ووظائفها في نظر الفكر العربي الإسلامي الفلسفي القديم، من أمثال الكندي والفارابي وأبي حامد الغزالي وابن باجة دون أن نغفل النظر عن الناقد الشهير ابن رشيق المسيلي.

أ . أسباب اختيار الموضوع والفترة المواكبة له :

إن أول دافع دعاني إلى البحث في هذا الموضوع هو انتمائي إلى أسرة الباحثين والدارسين الذي اختصوا بالبحث في الأدب المغربي القديم، كما اشتهروا بالتنقيب في الأدب الجزائري على الخصوص. ولذلك تأسست هذه الأبحاث والدراسات في مجملها على غايات مشتركة كانت هي الأخرى بواعث دفعتني إلى البحث في موضوع كهذا؛ وقد تشعبت دواعي

اختياري للبحث في موضوع النزعة الأخلاقية للشعر الجزائري القديم – العصر الزياني نموذجا – إذ منها ما كان ذاتيا صرفا ومنها ما كان خارجا عن إرادة الذات ومتصلا بالمجتمع وبواقعه البيئي والتاريخي والعلمي والحضاري؛ ولهذا ارتبطت رغبتي في البحث بما هو فطري ما دام الإنسان يولد مفطورا على سلوكات أخلاقية معينة، كما يمكنه أن يكتسب غيرها اكتسابا.

ودعتني هذه النزعة إلى البحث عن آثار الأخلاق في شعر عربي أصيل هو الشعر الزياني.

وليست الفطرة كما سبق وأن أشرت كفيلة بتبرير اختياري لهذا المبحث، بل كان لعملية الاكتساب أثر كبير في الدفع بي إلى اختيار هذه الدراسة، وهذا بالنظر دائما إلى طبيعة الحياة التي يعيشها كل إنسان، أي إن الإنسانية يمكن أن تكون شيمة خلقية لها أثرها في الشعر الزياني، وهذا في حالة ما إذا كنا نعني بالإنسانية إحساس الإنسان بأخيه الإنسان وسعيه إلى إعطائه حقه الذي يستحقه منه.

وقد يرتبط موضوع بحثي بالدافع التاريخي لما له من دور وأداء في الشعر الزياني، حيث يكمن هذا الدور والأداء في كشفي عما خلفه الأجداد قديما من آثار أدبية، لها وزنها في الشعر العربي في عصرهم ولها علاقة بالقضية الأخلاقية من وجهة أخرى.

ودون أن أطنب في حصر أسباب اختياري للموضوع، أشير بصفة موجزة إلى أن دوافع هذه الدراسة كثيرة وعلى رأسها قلة الدراسات في هذا المجال، لأن الدارسين كثيرا ما مالوا إلى البحث في الشعر الأندلسي والمشرقي العربيين، وغضوا الطرف عن مثل هذه الموضوعات لأسباب مختلفة.

وبناءا على ما سبق ذكره وبصفتي باحثا في الأدب المغربي القديم، فضلت تناول الشعر الزياني مشيرا من خلاله إلى موضوع النزعة الأخلاقية في ظرف زمني يتعدى قرونا ثلاثة

(962/633هـ) بدءا بقيام دولة بني عبد الواد (633هـ) إلى أن استولى الأتراك على الجزائر الزيانية سنة 962هـ.

ب . أهم الدراسات التي عنيت بالموضوع :

لم أقف على دراسة حديثة اهتمت بموضوع النزعة الأخلاقية في الشعر الزياني إلا إذا كانت هناك دراسات مغمورة، لم أتمكن من الوقوف عليها، أو أنها دراسات لم يتم طبعها ونشرها؛ بل لا أجزم إذا قلت إنها أول دراسة في الميدان باستثناء دراسة عثرت عليها، كان لها علاقة بموضوعي، وهي عبارة عن كتاب في ثلاثة أجزاء للمؤلف كامل اليازجي، والذي سماه (في الشعر العربي القديم)، حيث خصص جزأه الأول لدراسة أصول القضية الخلقية في الشعر العربي القديم بدءا بالجاهلي إلى الأندلسي ولكن من دون أن يلتفت إلى دراسة هذه القضية في الشعر الزياني.

وخصص في الجزء الثاني دراسة لمختلف النوازع الخلقية في الشعر العربي قبل العصر الزياني دائما، كما خصص في الجزء الثالث دراسة لأضداد النوازع الخلقية، وهو في ذلك لم يخرج عن الإطار الشعري الذي أشرنا إليه آنفا.

وأشير إلى أن الجديد في دراسة هذه القضية بيَّن في دراستها من خلال الشعر الزياني، إضافة إلى الفرق بين هذا الشعر وسابقه من حيث علاقة كل منهما بالزمن والبيئة والمجتمع، على الرغم من التشابه الكبير بين هذه الأشعار من حيث المضمون، كالتقارب في الأفكار والمعاني، إضافة إلى تلك العلاقة بين الشعر العربي القديم قبل وخلال العصر الزياني من حيث الشكل، كاللغة العربية بيانها وبديعها وموسيقاها وأوزانها الشعرية.

وقد حاولت دراسة موضوع النزعة الأخلاقية وإن كان موضوعا تعرض له اليازجي من قبل، ولكني أتناوله بكيفية مغايرة من خلال الشعر الزياني.

جـ . الصعوبات وطرائق تذليلها :

إن الصعوبات التي اعترضتني وأنا أدرس هذه القضية معروفة لدى كل باحث، وعلى رأسها قلة المصادر والمراجع وندرتها؛ وحتى إن توفرت، فإنها موجودة في أماكن يتحتم علينا التنقل إلى مراكز وجودها، وهذا ما تعذر علينا في كثير من الأحيان.

ولا نسهب في تعداد هذه الصعوبات مكتفين بما ذكرناه قبل قليل، وذلك لأنه من واجب الباحث أن يثبط عزيمته ويضاعف من إرادته لتجاوز كل صعوبة تعترضه في أثناء قيامه بالبحث؛ ولذلك كان لميلي إلى البحث في الموضوع أثره في تجاوز كل صعوبة، كما كان لأستاذي الدكتور : محمد مرتاض أثره في تذليل هذه الصعوبات، خاصة وأنه شجعني على البحث فيه، ونصحني بالصبر والتريث والتعقل في كتابة كل صغيرة وكبيرة. فسرت على منهاجه رويدا رويدا إلى أن وصلت إلى الهدف؛ وهو بناء دراسة عن هذا الموضوع في مبحثي.

د . المنهج المتبع في الدراسة :

إنه بكل اختصار منهج تكاملي يجمع بين الوصفي التاريخي والنفسي الاجتماعي والفني البنائي.

أما الوصفي التاريخي فلأننا حصرنا النزعة الأخلاقية في إطار زماني محدود، وربطناها في الآن ذاته بعدة أحداث ووقائع تاريخية، ثم أحصينا كثيرا من مكارم الأخلاق في شتى أغراض القول الشعرية التي نظم فيها شعراء الدولة الزيانية.

وأما اعتمادنا المنهج النفسي الاجتماعي فلأننا حاولنا توضيح طبيعة النزعة الأخلاقية انطلاقا من عملية الكشف عن علاقتها بالذات الشاعرة ومجتمعها والإنسان بعامة.

أما اعتمادنا على المنهج الفني البنائي، فلأننا أردنا الكشف عن علاقة الأخلاق بالبناء اللغوي وخصائصه الفنية التي قامت عليها مختلف النوازع الخلقية.

هـ. خطة البحث :

لقد بدأناها بمقدمة نحن بإزائها، ثم عرضنا لمدخل تناولنا فيه النزعة الأخلاقية في الشعر العربي قبل العصر الزياني كإرهاص لولوج البحث في موضوعنا الذي قسمناه إلى ثلاثة فصول :

أولها : النزعة الأخلاقية للشعر الزياني في العصر الأول.

وثانيها : طبيعة النزعة الأخلاقية للشعر الزياني في العصر الثاني.

وثالثها : المقومات الفنية لشعر النزعة الأخلاقية في العصر الزياني

وانتهينا آخر المطاف إلى خاتمة حوصلنا فيها أهم النتائج التي تمكننا من استخلاصها في دراستنا للموضوع وألحقتها بوضع فهرست للموضوعات وآخر للمصادر والمراجع.

وتبقى كلمة حق لا بد من ذكرها وهي شكري الجزيل وتثنية على المجهودات الجبارة التي كان لها باع في إنجاز دراستي للموضوع، وهي جهود أستاذي الدكتور محمد مرتاض، كما أكن كل امتنان ومودة واحترام وتقدير لأعضاء اللجنة المحترمين من الأساتذة الدكاترة الذين تجشموا عناء القراءة وقوموا هذا البحث المتواضع.

ولا أنكر جميل من قدم لي يد المساعدة كي يخرج هذا البحث على الصورة التي هو عليها الآن.

وأسأل الله أن يزيدني علما ومعرفة ودراية، وإن أخطأت فمن نفسي وإن أصبت فمنه تعالى.

المدخل

مما لا يحتاج إلى تأكيد؛ هو أن النزعة الأخلاقية ليست وليدة اليوم، بل إنها عاصرت مختلف المراحل الأدبية التي سبقت العصر الزياني وقد اتضح من خلال اطلاعنا على بعض المصادر والمراجع التي لها علاقة بموضوعنا أن هذه النزعة قد عرفتها مختلف الأمم والشعوب ولا سيما تلك التي أثرت بحضارتها وبفكرها في الأمم والشعوب الأخرى؛ وما سأقدمه هنا لا يعدو أن يكون إطلالة تاريخية عن هذه القضية الفنية في الشعر العربي قبل العصر الزياني، والتي أعدها مدخلا للموضوع لا أكثر.

- النزعة الأخلاقية في الشعر الجاهلي :

ما دام الشعر الجاهلي أقدم فن عربي تناول قضية النزعة الأخلاقية، فإنني سأحاول في دراستي لهذه القضية الكشف عن حضورها، بالتركيز على بعض أعلام الشعر الجاهلي الذين لا يمكنني التعرض إليهم جميعهم، كما لا يمكنني حصر شعرهم الأخلاقي الذي تناثر في أغراض متباينة، من مثل الغزل والوصف والمدح والهجاء والفخر والحكمة وغيرها؛ وعلى هذا النسق، كانت بوادر النزعة الأخلاقية في الشعر الجاهلي بدأت بالدعوة إلى مأدبة الغذاء التي تمثل سلوكا حميدا عند العربي، يرقى بالقيم والأخلاق الاجتماعية في ظروف معيشة قاسية عاشها هذا العربي كالغارة والنهب والبغض والبخل وغيرها؛ وحيث كانت الدعوة إلى الطعام دعوة إلى التحلي بالمكارم،.

فإن عمرو بن كلثوم (-600م) قد جسد هذه النزعة في معلقته الفخرية قائلا :

بأنا المطعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا ابتلينا[1]

[1] شرح المعلقات السبع – الزوزني . دار الآفاق، الأبيار، الجزائر، (د.ت)، ص : 101.

وعرض عمرو بن قميئة (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) في شعره الاعتذاري إلى شيم، منها الصبر والكرم والمجد، فأشاد بالمرء الذي ينعم، لنعم خلاله قائلا :

لعمري لنعم المرء تدعو بخلة إذا ما المنادي في المقامة ندد ا

...

صبرت على وطء الموالي وخطبهم إذا ظن ذو القربى عليهم وأخمدا

ولم يحمي حرم الحي إلا محافظ كريم المحيا ماجد غير أجراد[1]

وعبر الأعشى ميمون في المدح عن نزعة أخلاقية، يدعو فيها إلى العفة عن أكل الجيف، والنهي عن النيل من حرمة الجارة إلا بالحق، إضافة إلى دعوته إلى صلة الرحم وزيارة الأسير، كما يجب على المرء في نظره أن يؤمن بالله ويحمده وحده لا غير؛ يقول :

فإياك والميتات لا تقربنها ولا تأخذن سهما جديدا لتقصدا

...

ولا تقربن جارة إن سرها عليك حرام فانكحن أو تأبدا

وذا الرحم القربى فلا تقطعنه لعاقبة ولا الأسير المقيدا

وسبح على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا[2]

ويشير طرفة بن العبد (-569م) في الفخر إلى أخلاقه الفاضلة بحيث إنه يغيث المستغيث به ويحمي اللاجئ إليه؛ وهو في الآن ذاته كريم سخي، تقتدي به الأجيال وتفضله عن كل بخيل جف صداه؛ فيقول :

وكري إذا نادى المضاف مجنبا كسيد الغضا نبهته المتورد

[1] الأغاني – عماد الدين الأصفهاني . ج:16، طبعة دار الكتب، القاهرة، 1393هـ/1973م، ص:158.
[2] م.ن. ج:8، ص :82.

كريم يروي نفسه في حياته ستعلم إن متنا إذا أينا الصدى

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد[1]

وإن مما يعرف في تاريخ الشعر الجاهلي أن عنترة (-615م) كان أسطورة أخاذة لكل من ذاق طعم الشجاعة والبسالة في الوغى، ولعله يصور أخلاقه هاته في فخره بنفسه، كما يشيد بسماحته ونأيه عن الظلم؛ فقال :

أثني علي بما علمت فإنني سمح مخالقتي إذا لم أظلم

وإذا ظلمت فإن ظلمي باسل مر مذاقه كطعم العلقم

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هربا ولا مستسلم

. . .

بطل كأن ثيابه في سرحة يحذى نعال السبت ليس بتوأم[2]

ثم يشير عنترة إلى عفته حيث فضل الطوى وإطعامه الجائع مما نالته يداه التي عفت عن جني طعامها إلا بطرق شريفة؛ فيقول :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل[3]

وتبدو عفة الشاعر أكثر مع المحارم، فهو يغض طرفه، فلا ينظر إلى جارته حتى تواري مأواها؛ فيقول :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها[4]

---

[1] المعلقات السبع. ص: 46.
[2] م.ن. ص : 109-112.
[3] ديوان عنترة – دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1978م ، ص : 57.
[4] م.ن. ص :76.

أما لبيد بن ربيعة (-661م) فيفتخر بأخلاق قومه الذين نئوا عن الدنائس، بدليل أنهم حلماء لا يكترثون للطبع والبور والهوى أمرا؛ ويدعو الشاعر إلى التحلي بأخلاق كاللبانة والمجاملة والعطاء؛ فيقول :

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها

واحب المجامل بالجزيل وصرمه باق إذا ضلعت وزاغ قوامها[1]

...

لا يطبعون ولا يبور فعالهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامها[2]

وقد اشتهر المثقب العبدي (لم يؤرخ لوفاته) بين قومه بتفكيره العميق إلى درجة التفلسف، وبالنظرة الثاقبة، وبالعقل الراجح، إذ يشير إلى الذل الذي ينتقص من عزة الفتى وشهامته إذا لم يجابههما ولم يتقهما؛ فيقول :

وأعلم أن الذم نقص للفتى ومتى لا يتق الذم يذمم[3]

ويكاد الحكم نفسه ينطبق على الشاعر منقرة بن خروة (لم يؤرخ لوفاته) الذي جاء بيته التالي حكمة رصينة، ونصيحة أخلاقية بالجة:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأعمال نفسك فاجعل[4]

ولعل زهير بن أبي سلمى (-627م) قد مثل النزعة الأخلاقية تمثيلا قويا، بدليل أنه ينتمي إلى مدرسة التهذيب الأوسية من وجهة، وأنه لم يك يعاظل بين القول ولا يتبع حوشي الكلام

---

[1] المعلقات السبع. ص :74.

[2] م.ن. ص:86.

[3] المفضليات – المفضل الضبي. ج:1. تحقيق : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، ط:3، 1943 م، ص : 589.

[4] البيان والتبيين – بحر بن عمرو الجاحظ. ج:3. تحقيق : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، 1388 هـ/1968م، ص :163.

ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه[1]؛ وفي شعره الأخلاقي ما يدل على حكمته وفطنته وقوة بصيرته، لأنه اكتسب خبرة وتجربة عميقة طيلة حياته؛ فيقول معبرا عن نزعته التي دفعت به إلى الإيمان بحتمية الموت والحياة الآخرة، بل إنه آمن بحتمية القضاء والقدر- وإن كان المعنى سطحيا والتفكير ماديا -.

ومن هاب أسباب المنايا ينله وإن يرق أسباب السماء بسلم[2]

وأشار الشاعر إلى قضية الود والبغض والصداقة، فقال :

الود لا يخفى وإن أخفيته والبغض تبديه لك العينان[3]

متى تك في صديق أو عدو تخبرك الوجوه عن القلوب[4]

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم[5]

ومهما حاول الإنسان إخفاء أخلاقه يرى الشاعر بأن ملامح الوجه تكشف إلى حد ما أخلاق صاحبها بمرور الوقت، سواء أكانت تنم عن الود والإخلاص أم تبدي البغض والكره والحسد .

ولم يتوان شعراء النزعة الأخلاقية في العصر الجاهلي عن تحليل سلوك أخلاقي في بضعة أبيات، لا تخرج عن قصيدة تعددت أغراضها، بل استطاع كثير من الشعراء نسج صورة شعرية حية لسلوكات أخلاقية مختلفة، تحمل في مضامينها دعوات صريحة إلى التحلي بالأخلاق وبالفضيلة؛ وإن الشاعر الجاهلي استطاع الارتقاء إلى مصاف علماء الأخلاق في عصره بعد أن أبان كفاءته ومقدرته في توجيه وتعليم الإنسان وفقا لنصائح وإرشادات وحكم

---

[1] الشعر والشعراء – ابن قتيبة. دار صادر، مطبعة بريل، بيروت، 1902م، ص : 57.
[2] شرح المعلقات السبع. ص:66.
[3] ديوان زهير . دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص :105.
[4] م.ن . ص :16.
[5] م.ن . ص : 86.

مبثوثة في قصائد شعرية لم تستقل لذاتها؛ وعموما يمكن القول إن غير زهير شعراء كثيرون[1] ساهموا في بلورة تصور وأكثر عن الأخلاق في الشعر الجاهلي، ولذلك فإن النزعة الأخلاقية في الشعر العربي، قديمة قدم الجاهليين الذين استعملوا الشعر وسيلة للتعبير عن هذه القضية دون أن يتخذوه غاية لذلك.

وأشير في ختام دراستي للنزعة الأخلاقية في الشعر الجاهلي إلى أن هذه القضية قد توارثها الخلف من العرب والمسلمين وتعاملوا مع الأخلاق تعاملا خاصا، سأستجلي كنهه من خلال الدراسة التي خصصتها للنزعة الأخلاقية في الشعر الإسلامي – صدر الإسلام وعهد الخلفاء الراشدين –

- النزعة الأخلاقية في الشعر الإسلامي – صدر الإسلام وعهد الخلفاء الراشدين –

لقد وضع شعراء الجاهلية اللبنة الأولى للنزعة الأخلاقية في الشعر العربي بعامة، قبل أن تنتقل تلك النزعة إلى خلفهم بعد انقضاء الفترة الجاهلية ومجيء عهد آخر ميزته حياة أخرى لم يعرفها الشاعر العربي وشعره من قبل؛ فكان على هذا الشاعر أن يشيد لبنة ثانية تقوم عليها نزعة أخلاقية صورها الشعر العربي في صور استلهمت مختلف النوازع الخلقية السابقة، ودعمتها إما بتشذيبها وإما بتهذيبها وإما بإضافة جديد إليها مستمد من دين حديث على الشاعر العربي وشعره؛ وكان هذا الدين هو الإسلام الذي جاء في ظروف تغيرت فيه مجريات الحياة لدى العربي والمسلم على الخصوص، فكان لزاما على الشعر أن يخضع لمقاييس وقواعد توجه مضمونه وشكله معا، مما يدل على تطور في النزعة الأخلاقية للشعر والشعراء، حيث صارت كلمة الإسلام في معناها الواسع مرادفة للشعر العربي بمعناه الخاص، فأصبح الشعر

[1] من أمثالهم : المهلهل بن ربيعة والشنفرى وتأبط شرا والمتلمس ولقيط بن يعمر والحارث بن حلزة والنابغة الذبياني والنابغة الجعدي، وغيرهم لا تسعني دراستي إلى ذكرهم جميعهم.

وسيلة لخدمة هذا المعتقد، وباتت غايته مقيدة بمبادئ وتعاليم هذه العقيدة لأجل نشرها في مختلف أطوار الحياة وميادينها .

ويمكننا أن نعد هذه المرحلة بداية لتأسيس نزعة أخلاقية تجنح إحداها إلى موقف الرسول (ص) من الجانب الأخلاقي وتجنح أخراها إلى موقف الخلفاء الراشدين من الأمر نفسه.

1) موقف الرسول (ص) :

لا يختلف الرسول (ص) في موقفه عما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى :﴿وَ الشُّعَرَاءُ يَتْبَعُهُمْ الغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا﴾[1] وموقف الرسول إذ ذاك توجيهي للشعراء وشعرهم، بيد أنه كان (ص) معلما لعرب يعيشون نقلة في حياتهم من الجاهلية إلى الإسلام، ثم إن الشاعر العربي لم يعد يهتم بالهجاء والمفاخرات، ما دام هذا الاهتمام يحرض على هدر القيم والأخلاق بعد سفك الدماء وتفتيق الشمل وكسر كل وحدة من شأنها أن تقوم بينهم جميعا؛ وقد حرم عزَّ وعلا التفاخر بين المسلمين في قوله :﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ.﴾[2] أي إنه ليس ممكنا لابن الرسول (ص) ولا لحفيده ولا لمن متَّ بصلة إليه أن يفتخر بنسبه أمام المسلم، بل فليفتخر بتقواه، حيث التقوى خلق جليل عند الله والرسول؛ ولقد اتخذ شعراء الإسلام من شعرهم سلاحا حادا يحاربون به كل شعر قيل في صدر الإسلام ولم يخدم أهله القضية الجوهرية يومئذ؛ وكان أهل الشعر الذين هجوا الإسلام والمسلمين ممن هدروا الأخلاق والفضيلة، وهم غاوون كما وصفهم تعالى، مفضلا عليهم أولئك المؤمنين الصالحين الذين

[1] القرآن الكريم – رواية ورش. الناشر : دار المصحف : شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة، 1383هـ/1964م. سورة : الشعراء، الآية : 223-226، ص :306.
[2] م.ن. سورة : الأحزاب، الآية : 40، ص : 346.

خدموا الدين الجديد ومبادئه الأخلاقية ومعانيه السامية بصدق، والتي طالما دعا أهلها إلى الخير والفضيلة؛ وتراه يقيم (ص) الشعر على أساس الحق إذا أراد صاحبه أن يسمو به إلى الحسن والجمال، ولن يكون الشعر حسنا جميلا إلا إذا خدم الأخلاق الحسنة التي تكشف في بنائها شيمة الصدق، حيث إنه حينما سمع بيت لبيد (-661م) وصفه بالصدق؛ وهو قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل[1]

والبيت - مثلما نلاحظ - يحمل نزعة دينية صرفة، لأن الشاعر يصرح بإيمانه في البقاء والخلود للخالق فقط، كما يدلنا على التغير العميق في الفكرة والحياة التي عرفها الجاهلي قديما، وهو في حاضر الإسلام يتوجه بفكره إلى معاني العقيدة الفاضلة االسمحة، ويود أن يثبتها في وسطه الاجتماعي، وينشرها بين الناس، ليتناقلوها جيلا بعد جيل؛ وقد استحسن الرسول (ص) بيت حسان بن ثابت (-40هـ) القائل :

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا[2]

كما حبذ الرسول (ص) قول حسان، لأنه عني بصفة الصدق واهتم بتوجيه الشعر إلى خدمة الأخلاق، وهذا ما يدل على أن الشعر صار وسيلة تعنى بالفضيلة والخلق الحسن عند الشاعر أو بمعنى آخر، أن يكون الفن للأخلاق أو المضمون للنزعة الأخلاقية، وذلك ما كان معروفا في عهد الرسول (ص) بخاصة. ويمكن أن نعتبر موقفه (ص) نواة أولى لتأسيس وتطور الشعر الأخلاقي عند العرب والمسلمين، بدءًا بتحريم الله تعالى التفاخر والعصبية التي عرفها الجاهلي من قبل، وقد نهاه الرسول عنها مصداقا للوحي الكريم؛ وبالرغم من انصراف

---

[1] شعر لبيد بن ربيعة بين جاهليته وإسلامه – الدكتور : زكرياء عبد الرحمن صيام. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1400هـ، ص : 196.

[2] ديوان حسان بن ثابت – د : وليد عرفات، دار صادر، بيروت، 1974م، ص : 196.

المسلمين بعامة إلى خدمة العلوم الدينية من كتابة للوحي وحفظه، وحفظ الحديث الشريف، فإنهم زاولوا الشعر سليقة، وخلفوا تراثا يعد لبنة أساسية يفيد منها تطور الشعر الأخلاقي العربي عبر العصور؛ ودون أن يميز الشعراء بين الأغراض الشعرية، فإنهم أسهبوا في بلورة نظرية أخلاقية شعرية، دوّنها الشعر وصوّرها في أجمل الصور وأروعها . ومن النماذج التي تؤكد ذلك، أشعار عمتها عاطفة دينية متأججة تأجج العصر وأحداثه المختلفة، فنمت عن سمو الروح وصفائها، ودعوة الشاعر إلى الخير ونبذ الشر، مما جعل النزعة الأخلاقية تنحو منحى دينيا، هدفه التربية والتعليم في غالب الأحوال؛ وقد مثل تلك النزعة في الشعر العربي شاعر الرسول (ص) وتلميذه المخلص حسان بن ثابت الذي راح يبث الأخلاق صورا شعرية، ملؤها دفء الشعور وعمق المعنى ونبل القيم الإنسانية؛ ولم يتوان عن الأخذ بمبدئ الدعوة الإسلامية سنة محمودة لكل من أراد أن تحمد أخلاقه، وكان (ر) ممن ناصر الإسلام بلسانه مصداقا لأمره من قوله (ص): "أُهْجُهُمْ وَمَعَكَ جِبْرِيلُ رُوحُ القُدُسِ"[1] ولم يتعرض حسان في شعره إلى التجريح بالأنساب وبالأعراض مثلما كان سائدا في الجاهلية على ألسنة بعض الشعراء الذين لم يتملصوا في هجائهم من هذه النزعة على عهد الرسول (ص)، فاكتفى حسان (ر) بالرد على كل من تعرض للإسلام وللمسلمين بسوء مدللا على سمو أخلاقه ونأيها عن الهجاء المقذع حيث قال :

كم قتلنا من كريم سيد ماجد الجدين مقدام بطل[2]

---

[1] العمدة في محاسن الشعر وآدابه – الحسن بن رشيق. تحقيق : محمد قرقزان، ط:1، بيروت، لبنان، 1408هـ/ 1988م، ص : 92

[2] م.ن. ص :306.

لقد وصف حسان عدوه بالكرم -من كريم سيد- ووصفه بالأصالة وبالعراقة، والشرف والحسب والبطولة والشجاعة:"ماجد الجدين مقدام بطل" . وذلك ما يدل على نزعة الشاعر الخلقية والدينية الفاضلة التي يصورها قوله في الرد على أبي سفيان مثلا :

ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغلة فقد برح الخفاء

بأن سيوفنا تركتك عبدا وعبد الدار سادتها الإماء

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء[1]

وانبرى حسان يمدح الرسول (ص) مشيدا بالدعوة قائلا :

نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل وفي الأرض تعبد

فأمسى سراجا وهاديا يلوح كما لاح الصقيل المهند

وأنذرنا نارا وبشرنا جنة وعلمنا الإسلام فالله نحمد

...

وأنت الإله ربي وخالقيبذلك ما عمرت في الناس أشهد[2]

إنها أبيات تدل على السبق في المديح النبوي كنزعة أخلاقية دينية، أو كغرض وفكرة مؤسستين على الإيمان بالله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وأن الله قد خلق الجنة والنار، ولكل إنسان عقاب وثواب.

ومن الأفكار والمعاني المبتكرة في شعر حسان الخلقي، ما تدلنا عليه نزعته إلى الإقتداء بالشهداء الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الله ورسوله ودينه وأرضه الكريمة، فكان رثاء حسان فاصلا تاريخيا بين نزعتين، سادت الأولى العصر الجاهلي، وسادت الأخرى عهد

[1] العمدة في محاسن الشعر وآدابه. ص:18.
[2] م.ن. ص: 306.

الإسلام، واختار المسلم أيام الرسول (ص) نظام الشورى المبني على أساس أخلاقي جليل، هو الدعوة إلى الجهاد من أجل الحق، واستبدال ذلك النظام القبلي الذي عرفه الجاهلي واستند فيه إلى مبدئ القوة التي لا تخدم الإنسانية، وهكذا بمجيء الإسلام اختفت هذه الفكرة، وتلاشت معانيها وقضي على نظامها الذي غالبا ما كان يدعو إلى التفاخر واستعباد الأبيض للأسود على سبيل المثال.

ويكشف حسان عن هذه التحولات الفكرية في مشهد شعري يصور فيه واقعة مؤتة[1] وشهدائها الأبرار، أمثال زيد بن الحارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، فيقول:

تأوبني ليل بيثرب أعسر وهم إذا نام الخليلون مسهر
لذكرى حبيب هيجتني عبرة سفوحا وأسباب البكاء التذكر
بلاء وفقدان الحبيب بلية وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
رأيت خيار المؤمنين يتوارد شعوبا وخلفت فيمن يؤخر
فلا يبعدنا الله قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا جميعا وأسباب المنية تخطر[2]

ويشيد بأخلاق المسلمين مشيرا إلى خوفهم من الله واحتمائهم بحرز بالتقوى وذودهم عن الإسلام وهم في نظر الشاعر جبلوا على هذه السلوكات حتى وإن سبق السابقون إليها في بعض الصور التي كان على الإسلام أن يهذبها تهذيبا، فيقبل منها الحسن ويرد السيئ والبدعة،

[1] الكامل للمبرد. ج:1. ت: أحمد محمد شاكر. مطبعة مصطفى الباجي الحلبي، ط:1، مصر، 1356هـ/1937م، ص :114.
[2] ديوان حسان. ص: 98.

ويترك السابق تابعا، يستنير بما جاء به الإسلام من أخلاق فاضلة فضل الله على عباده؛ وعن هذه النزعة الخلقية يقول حسان :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا للناس سنة تتبع

يرضى بها كل من كانت سليقته تقوى الإله وبالأمر الذي شرع

قوم إذا حاربوا ضرُّوا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع[1]

ومن مظاهر النزعة الأخلاقية في الشعر لهذا العهد، ظهور الغرض الشعري ذو الطابع الديني الصرف وهو المديح النبوي، إذ كانت بردة كعب بن زهير (-24هـ) أولى قصيدة قائمة بذاتها لهذا الغرض، سميت بالبردة تعبيرا عن المعاملة الخلقية الشريفة للرسول (ص) عندما خلع بردته وألبسها كعبا وأصفح عنه، ليدل قبل كل شيء على أن الإسلام دين خلق ودين عفو وسماحة، فكان لهذا الفعل أثره في نفسية الشاعر والشعراء والمسلمين جميعا .

ولقد زخرت البردة بأفكار ومعان خلقية سامية، تطبعها عاطفة هادئة هدوء الروح العفيفة، وتعمها مشاعر تتراوح بين اعتذاريات الشاعر للرسول (ص) ومدحه، ومدح المسلمين، وفي ذلك يجمع الشاعر بين ثقافة جاهلية يصورها مطلع القصيدة الغزلي :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيمم إثرها لم يفد مكبول[2]

وثقافة الشاعر الإسلامية تجلو من قوله :

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

---

[1] ديوان حسان. ص:102.
[2] الشعر والشعراء. ص:67.

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القرآن، فيه مواعيظ وتفصيل

من خادر من ليوث الأسد مسكنه من بطن عشر غيل دونه غيل

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داوود في الهيجاء سرابيل

لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل[1]

لقد اتضحت معالم النزعة الأخلاقية مجسدة في الشعر الإسلامي بصورة أدق مما ألفها الشعر الجاهلي، وأضحى الشعر وسيلة أخلاقية وغاية لتلك النزعة التي دفعت بالشعراء إلى القيام بدور الخطباء والمربين في ظروف تغيرت فيها القيم الفكرية والإنسانية والحضارية، كما اهتدى الشعراء في ذلك إلى صون الفضيلة، واعتدادها وظيفة أساسية للشعر والشعراء، بعد أن مرُّوا في مهامهم بالمناظرة الفكرية والجدال المقروع بالحجة والبينة، واستطاعوا تأسيس مشروع أخلاقي استمدوه من الكتاب والسنة والواقع المعاش والتجربة الشخصية.

2) موقف الخلفاء الراشدين :

لم يختلف هذا الموقف عن موقف الرسول (ص) ، ولكن التدوين للقرآن الكريم والاهتمام بتدوين الحديث الشريف، لم يمنع الخلفاء من العناية بالشعر والشعراء، حيث أوصوا بتلقين الشعر لأبناء المسلمين بطرق سليمة تجعل الشاعر والمتلقي يفرقان بين الفضيلة والرذيلة، وينصرفان إلى انتهاج السلوك الأخلاقي الحسن والقدوة المثلى؛ وقد أمر عمر بن الخطاب المسلمين بأن يرووا من الشعر لأبنائهم ما حسن منه، وهو الذي قال عنه ابن قتيبة : " . . . ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال : أنشدوني لأشعر شعرائكم وقيل : من هو؟ قال :

[1] الشعر والشعراء. ص:67-68.

زهير. وقيل : بما صار كذلك؟ قال : كان لا يعاظل بين القول ولا يتبع حوشي الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه."[1]

ففي القول استحسان عمر لشعر زهير الجاهلي، وما ذلك إلا لأن الشاعر قد نزع في شعره إلى الإشادة بالأخلاق في مناشدته للصدق، والجنوح إلى الحكمة والتروي، ونفور أفكاره ومعانيه عن المعاظلة والغرابة والتكلف، حتى بدا نسيجه الشعري محكما قويما، دالا على الخلق الراقي عند صاحبه وبعض شعراء عصره، الذين مدحوا ملتزمين في ذلك الصدق.

ولقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه (-13هـ) ممن لازم النبي (ص) طيلة حياته، وقد أنشد قصيدة تعكس نزعته الأخلاقية التي تحبو عاطفتها إلى الصدق والإخلاص، كما تنم في معظمها عن سمو الفكر والمعنى ونبل الغاية والمرمى، حيث يقول ذاكرا الله، معددا صفاته كالجليل والوكيل، ومؤمنا في الآن ذاته بعظمة الله وتفرده بالخلق والمن والصفح والكرم والإغاثة وغير ذلك؛ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه :

جد بلطف يا إلاهي من له زاد قليل ... مفلس بالصدق يأتي عند بابك يا جليل

قال ربي ذنوبي مثل رمل لا يعد ... فاعف عني كل ذنب واصفح الصفح الجميل

كيف حالي يا إلاهي ليس لي خير العمل ... سوء أعمالي كثير زاد طاعتي قليل

. . . .

قل لناري ابردي في حقي كما ... قلت قلنا نار كوني أنت في حق الخليل

أنت شافي أنت كافي في مهمات الأمور ... أنت ربي أنت حسبي أنت لي نعم الوكيل

ربي هب لي كنز فضل أنت وهاب كريم ... أعطني ما في ضميري دلني خير دليل

[1] الشعر والشعراء. ص :57.

هب لنا ملكا كبيرا نجنا مما نخاف ربنا أنت قاضي والمنادي جبرئيل[1]

إن هذه القصيدة وغيرها في الشعر العربي على عهد الخلفاء الراشدين صورة مثالية لكل نزعة أخلاقية بمجاراة مبادئ الإسلام وتعاليمه، وهي ترجع في أصولها الأخلاقية وأهدافها إلى سيدنا محمد (ص) وهو الذي أثر بالمثل في سيدنا علي كرم الله وجهه (-40هـ) بحيث وفق رضي الله عنه في تجسيد نوازع خلقية مختلفة في أحسن الصور الشعرية وأكملها، وأدقها دلالة وأعمقها وأصدقها غاية وأكرمها. وقد أشار رضي الله عنه إلى الفضل والعلم والهدى والجهل، وهو يرى إذ ذاك بأن العالم صاحب فضل يستنير بالهدى، وصاحب جلة وشأن، يعاديه الجاهل لرفعته؛ والجاهل في نظره ميت من دون عالم حي فيقول :

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى إدلاء

وقيمة المرء ما قد كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

فقم بعلم وتطلب به بدلا فالناس موتى وأهل العلم أحياء[2]

وأما أنه رضي الله عنه يشير إلى الصدق والمودة والإخاء، فلأن المودة الحقة في نظره هي مصافاة الله والمصافاة في الإخاء بين الناس، وأن لكل داء دواء وليس لسوء الخلق دواء؛ قال:

تغيرت المودة والإخاء وقل الصدق وانقطع الرجاء

...

وكل مودة لله تصفو ولا يصفو مع الفسق الإخاء

وكل جراحة فلها دواء وسوء الخلق ليس له دواء[3]

---

[1] مجموع القصائد والأدعية – السعدي حكار. المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، ط : 4، الجزائر، 1380هـ/ 1960م، ص :6.

[2] ديوان الإمام علي – تحقيق : الدكتور : محمد عبد المنعم خفاجي. دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، (د.ت)، ص : 25.

[3] م.ن. ص: 25-26.

كما يشير رضي الله عنه إلى عفته قائلا :

إذا أنكرت عهدا من حميم ففي نفسي التكرم والحياء[1]

وينكر رضي الله عنه الوفاء عن النساء، كأني به وعن تجربة وخبرة كبيرة بأفئدتهن ينصح الرجل ويحذره من كيدهن، إلا من اصطفاهن تعالى وفضلهن عن غيرهن؛ فيقول :

يكسرن قلبك ثم لا يجبرنه وقلوبهن من الوفاء خلاء[2]

ويحث رضي الله عنه على طلب العزة والرفعة والتنزه عن الدنائس والخبائث، فينم عن إبائه الضيم قائلا :

لا تطلبن معيشة بمذلة واربأ بنفسك عن دني المطلب[3]

ولعل من مواعيظه ودعوته إلى التحلي بالخلق الفاضل قوله في الرفق وهو يمن في نظره، والأناة وهي سعادة المرء ونجاحه :

الرفق يمن والأناة سعادة فتأن في أمر تلاق نجاحا[4]

وأشاد رضي الله عنه بكتمان السر، ونصح بعدم إفشائه قائلا :

فلا تفشي سرك إلا إليك فإن لكل نصيح نصيحا[5]

وقد اقتصرت في تحديد النزعة الأخلاقية في صدر الإسلام وعهد الخلفاء الراشدين على ما ذكرته إلى الآن من نماذج شعرية، مع أن هناك الكثير من الشعراء[6] الذين أسهموا في الأخذ بهذه القضية الفنية، وأشير في نهاية دراستها من خلال هذا العصر إلى أنها نالت من عناية

---

[1] ديوان الإمام علي . ص: 26.
[2] م.ن. ص: 26.
[3] م.ن. ص: 37.
4 م.ن. ص: 56.
5 م.ن. ص: 57.
6 أمثال كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة والخنساء وحميد بن ثور الهلالي والراعي النميري وغيرهم ليس باستطاعتي ذكرهم في هذه الإطلالة التاريخية.

شعراء بني أمية الذين لم يختلفوا عن سابقيهم في الإشادة بمكارم الأخلاق، وعلى رغم أنهم لم يخرجوا عن النمط السابق في التعامل مع هذه القضية، إذ ضمنوها شتى أغراض القول الشعري، من مدح ووصف وفخر وغزل وغير ذلك؛ وسأحاول توضيح هذا الأمر في دراستي لهذه القضية في الشعر الأموي من خلال العنصر الموالي.

- **النزعة الأخلاقية في الشعر الأموي :**

ما جدَّ في هذا العصر هو كثرة النظم وذيوعه في ربوع الدولة الإسلامية الفتية، بيد أن الغزل عاد بعودة نفحته الجاهلية، فما من أحد خاطب المرأة وتشبب بها كعمر بن أبي ربيعة، وما من أحد عفَّ في الغرض نفسه كجميل بن معمر؛ وأما العراق فكانت مسرحا لعودة العصبية والتفاخر سواء أكانت عصبية ملكية، أو قبلية، أو عصبية بين العرب والأعاجم؛ واشتدت النقائض على عهد هذه الخلافة بواسطة جرير والأخطل والفرزدق؛ وأما الحجاز عاصمة الدولة، فقد انتشرت فيها المجالس الأدبية، كما ميزتها أجواء من الغناء والرقص.

ومن الجديد في الأغراض الشعرية، شعر خدم السياسة، ومثله طوائف من الشعراء اختلفت فيه لاختلاف اتجاهاتها، وتباين المذاهب التي اعتنقتها من خوارج وشيعة وزبيرية ومنافسي بن أمية. وفي المقابل ظهر شعراء، انصرفوا عن الأغراض السابقة وعنوا بالشعر الديني والزهدي.

ولعل من بين الشعراء الذين اهتموا بالقضية الأخلاقية في هذا العصر نصيب (لم يؤرخ لوفاته) الذي أشار إلى شيمة الصدق بحيث ربطها بعاطفته التي تنم عن حبه لخليلته، إذ قال في الغزل:

وإن لم يكن أني أحبك صادقا فما أحد عندي إذا بحبيب[1]

ويصف بن قيس الرقيات ممدوحا له بالجود الذي لا ينضب في نظره إذا ما قورن مع غيره من الناس الكرماء؛ فيقول :

تزور فتى قد يعلم الناس أنه تجود له كف قليل غرارها[2]

أما عمر موسى شهوات فيشير في مدحه إلى العطاء والإخاء وطهارة الأخلاق والبعد عن الدرن، وهي خلال اتصف بها ممدوحه الذي جادت يداه، فكان ذا أخوة وأبيا عن قبول المنّ وبعيدا عن الدرن وطاهر الأخلاق؛ ولذلك يقول :

وهو إن أعطى عطاء كاملا ذا إخاء لم يكدره بمنْ

...

حسرت عنه نقيا لونه طاهر الأخلاق ما فيه درن[3]

ولقد أفاض العتبي في وصفه للسر حيث وصفه بالصديق، كما شبه كتمانه بالثوب ونصح الإنسان بأن لا يودع سره للأحمق، لأنه غير عاقل، وأن حامل السر في نظره واعظ أريب؛ قال:

ولي صاحب سري المكتم عنده مخاريق نيران بليل تحرق

عطفت على أسراره فكسوتها ثيابا من الكتمان لا تتخرق

فمن تكن الأسرار تطفوا بصدره فأسرار صدري بالأحاديث تغرق

فلا تودعن الدهر سرك أحمقا فإنك إن أودعته منه أحمق

---

[1] الكامل في اللغة والأدب- للمبرد. ج:2، ص : 504.
[2] م.ن.ج.ن، ص : 647.
3 م.ن. ج.ن، ص : 649.

وحسبك في ستر الأحاديث واعظا من القول ما قال الأريب الموفق[1]

وقد عني عمر بن أبي ربيعة (-711م) بقضايا أخلاقية متنوعة، كإشارته إلى العدل والعفة والود والصبر، وهو يقيمها على التقوى مخاطبا إذ ذاك القضاة قائلا :

يا قضاة العباد إن عليكم في تقى ربكم وعدل القضاء[2]

وافتخر الشاعر بعفته في الغزل قائلا :

فما بال طرفي عفَّ عمَّا تساقطت له أعين، من معشر، وقلوب[3]

ووصف ابن أبي ربيعة حبيبة بالود؛ فقال :

ولست وإن سلمى تولت بودها وأصبح باقي الود منها تقضبا[4]

وأما عن صبره فيقول :

ومن لست أصبر عن ذكره ولا هو عن ذكرنا صابر[5]

وقد عرض الأخطل (-92هـ) إلى صفات خلقية مختلفة بحيث افتخر بكرمه وإقدامه وجرأته وشجاعته؛ فقال :

وأكرمها مواطن حين تبلى ضرائبها، وتختضب النحور

وأسرعها إلى الأعداء سيرا إذا ما استبطئ الفرس الحرور

به ترمي أعاديها قريش إذا ما نابها أمر كبير[6]

---

1 الكامل في اللغة والأدب. ج:2، ص : 701.
2 ديوان عمر بن أبي ربيعة – دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص :13.
3 م.ن. ص :33
4 م.ن. ص :37
5 م.ن. ص :138
6 شرح ديوان الأخطل التغلبي – إليا سليم الحاوي. نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص : 302-303.

ويدلنا الأخطل في الفخر على أنه كان شديد الاعتزاز بالنسب وحريصا على حفظ الشرف والحسب، حيث يقول :

ذببت عن أعراضكم آل وائل وناضلت حتى لم أجد من لم أناضله[1]

كما ساهم كُثيِّرُ عزة (-105هـ) إلى جانب شعراء بني أمية في التعبير عن النزعة الأخلاقية، بيد أنه أشار إلى خلال كثيرة، من مثل الصفح وإباء الضيم والحث على العطاء وحفظ السر، والرحمة بالفقير وبالسائل، وغير ذلك من الشيم التي حفل بها شعره العذري بخاصة؛ فقال عن الصفح في الغزل :

هو الصفح منها خشية أن تلومها وأسباب صرم لم تقع بقبالها[2]

وأما أنه يدل عن إبائه الضيم والترفع عن المنِّ، فلكونه يمقت أن يسأل غيره معروفا، لأن سؤال النفس في نظره إهانة لعزتها واحتقارا لكرامتها، فهو يقول :

وأبعد نيلا وأوشكه قلى وإن سئلت عرفا فشر مسول[3]

ويحث كثير المتغزل بها على العطاء، ويؤكد على أن هذه الخلة من جميل الأخلاق وطيبة النفس، إذ يقول :

فإن طبت نفسا بالعطاء فأجزلي وخير العطايا، ليل، كلُّ جزيل

وإلا فإجمال إلي فإنني أحب من الأخلاق كل جميل[4]

وقد أشار إلى أمين السر، لأن قيمته رفيعة في نظره، وهو كما يصفه الشاعر نبيلا طاهرا برًّا لكل خير، إذ يقول :

---

1 م.ن. ص : 673.
2 ديوان كثير عزة – جمع وتحقيق : الدكتور : إحسان عباس. نشر وتوزيع: دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1391 هـ/1971م، ص : 91.
3 م.ن. ص : 109.
4 م.ن. ص : 111.

أمين الصدر يحفظ ما تولى كما يلقى القوي به النبيل

نقي طاهر الأثواب بر لكل الخير مصطنع محيل[1]

ويؤكد كثير على أن الرحمة بالفقير وبالسائل لا بد أن تكون مؤسسة على الدين والعقل الراجح والرأي السديد، حيث يقول :

إذ هو لم تذكره نهاه وقار الدين والرأي الأصيل

وللفقراء عائدة ورحم ولا يقصى الفقير ولا يعيل[2]

ومن الشعراء الأمويين الذين ساهموا في إثراء شعرهم بمختلف النوازع الخلقية كثيرون[3] كثرة الشعر الذي حفلا بالأخلاق؛ ولذلك يصعب علي أن أحصرهم جميعهم في هذه الدراسة المتواضعة؛ وأكتفي بالإشارة إلى أنهم إذا كانوا قد تأثروا إلى حد ما بمن سبقهم من الشعراء الإسلاميين والجاهليين، فإنهم أثروا بالمثل فيمن جاء من بعدهم من شعراء الدولة العباسية، والذين ما فاتتهم الفرصة في الأخذ بمعالم النزعة الأخلاقية في شعر تعددت أغراضه على النحو الذي عرفناه لدى الشعراء المتقدمين؛ ولذلك سأحاول بعد هذه الإطلالة القصيرة الكشف عن الجانب الأخلاقي في الدراسة الموالية التي عنونتها بالنزعة الأخلاقية في الشعر العباسي.

---

[1] ديوان كثير عزة. ص : 122

[2] م.ن. ص : 123-124.

[3] منهم مسكين الدرامي وجميل بن معمر ورؤبة بن العجاج والوليد بن عقبة وشبيب بن البرصاء ويزيد بن الحكم الثقفي وطريح بن اسماعيل الثقفي والسمؤل والأخيلية والأسود الذؤلي والوليد بن يزيد والفرزدق وجرير وغيرهم.

- النزعة الأخلاقية في الشعر العباسي.

إن الشعر العباسي حلقة من حلقات الوصل بالشعر الأموي والإسلامي والجاهلي، ولكنه يختلف عنهم، سواء من حيث التسمية أم من حيث تصوير الذات الشاعرة وواقعها من الحياة، والعلة في ذلك الفرق في الزمن، واختلاط العرب بالأعاجم، ثم التجديد الذي دبَّ في بناء القصيدة ومضمونها؛ وقد اشتهر من شعراء العصر بشار بن برد (-167هـ) في غرض الهجاء، وأبو نواس (-199هـ) في الغزل الماجن والغلاميات، كما اشتهر غيرهما في الزهد كأبي العتاهية (-212هـ) واشتهر المتنبي (-354هـ) في الحكمة، وأبي العلاء المعري (-449هـ) في اللزوميات. والمهم أن الشعر في هذا العصر مال أصحابه إلى وصف مظاهر المدنية الجديدة، مما ساعد على ظهور فنون أخرى ليس هذا محلها، ولكن يمكن القول إن الزهد قد قلَّ ولم يعرف إقبالا كبيرا من الشعراء، على حين أن هناك أغراضا أخرى قد عرفت ثراء وتنوعا مثل المدح والرثاء والهجاء، والمجون بصورة عامة.

وفي خضم هذا الكم الهائل من الفنون الشعرية، فقد عبَّر الشعراء العباسيون عن مختلف النزعات الخلقية التي عهدها الشعر العربي والشعراء قبل العصر العباسي.

ويعسر علينا في هذا المجال استقصاء مجموع النزعة الخلقية، بحيث لا تكفينا صفحات بحثنا للإلمام بها في ظرف قد يطول؛ ولذلك سنحاول التعرض لبعض النوازع الخلقية التي اشتهر بها شعر العباسيين.

ولعل من الصفات الخلقية التي ورثها العباسيون عن القدماء، إباء الضيم، كميزة ارتبطت بالفخر خاصة، والمدح عموما؛ وقد استثمر المتنبي (-354هـ) هذه الخلة في شعره، وحاول أن يعقد شبها بين إنسان فاقد للضيم، وإنسان ميت فاقد للروح، إذ ليس بينهما فرق إلا

الموت والحياة، وأما العلاقة بينهما، فلأنه ليس المضيم من كانت بزته جميلة، وليس ينفع الميت جودة ثيابه بعد أن فاضت روحه؛ وغاية الشاعر في ذلك نشر فضيلة الاعتزاز بالنفس دون الهوان، وهذا باستعماله نزعة تجنح إلى الحكمة والتجربة في الحياة؛ وهو يقول :

لا يعجبن مضيما حسن بزته وهل تروق دفينا جودة الكفن[1]

ويرى المتنبي (-354هـ) في موضع آخر أن الذليل ميت في روحه وحي في جسده وهوانه، وفاقد شعوره، لا يضاهي عزيزا فضل الموت من أجل عزته وكرامته وأناقته :

ذلَّ من يغبط الذليل بعيش رُبَّ عيش أخف منه الحمام

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام[2]

ويحث أبو العتاهية (-212هـ) على وجوب توفر هذه الخصلة الحميدة في الإنسان، حيث لا تحصل في نظره إلا بعد الاعتناء بالنفس وإكرامها، وإقبالها على الفضيلة، والحرص على صرفها عن كل رذيلة وذميمة، يقول في هذا الشأن :

إذا ما أراد المرء إكرام نفسه رعاها ووقاها القبيح وزينا

أليس إذا هانت على المرء نفسه ولم يرعها، كانت على الناس أهونا ؟[3]

تصوُّر الشاعر للعزة والذل عند الإنسان يوحي بحكمته كالمتنبي، ويدل كذلك على نزعته الخلقية التي تميل إلى الزهد، بدليل أنه كان أميرا للنظم في هذا الغرض على عهده، وله مقولة شعرية مشهورة، حبَّذها العام والخاص، لبلاغة نظمها وشرف معناها وصدق عواطفها، ونبل غايتها الزهدية، إذ قال :

---

1 ديوان المتنبي – إبراهيم اليازجي. دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1305هـ، ص : 172.
2 م.ن. ص : 163.
3 ديوان أبي العتاهية – دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1887م، ص : 271.

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن[1]

ولعل من الخلال الحميدة التي أشاد بها أبو العتاهية منها الإحسان والرحمة والعدل والتقوى وهو في ذلك يحث عليها قائلا :

أحسن وإلا لم تصب إن أنت لم تحسن ندمتا

وارحم لربك خلقه فليرحمنك إن رحمتا

لا تظلمن تكن من الأبرار واعطف إن ظلمتا

وإن اتقيت الله في كل الأمور فقد غنمتا[2]

ولا يختلف الأبي عن الحليم، والحلم صفة أشاد بها الشعراء العباسيون في غير موضع من شعرهم وإن قلّ عددهم، مقارنة مع غيرهم ممن صوروا السفاهة والجهل.

ومن معاني الحلم الأناة والتؤدة والعفو عند المقدرة وغيرها من المعاني التي تدل على الخلق الكريم عند صاحبها؛ وقد صور أبو فراس الحمداني (-357هـ) هذه النزعة، فقرنها بمعان أخرى كالصبر وحسن القول وحفظ السر، مما يجعل الإنسان في نظره مصدرا لسلوكات أخلاقية تحمد له تارة، وترفع من مقامه في نفسه في المجتمع تارة أخرى.

وليست غاية الشاعر بالحلم سوى دليلا على أن غايته شريفة، شرف ما دعانا إليه في الأخذ بمعاني الصبر وغنى النفس به، والحث على نصح السفه دون العرض عنه، واختيار الصديق من الأصدقاء من كان على درب الوفاء بكتمان السر لا الجهر به، ولذلك يقول أبو فراس :

أنفق من الصبر الجميل فإنه لم يخش فقرا منفق من صبره

---

1 أبو العتاهية – أشعاره وأخباره -تحقيق : الدكتور : شكري فيصل، دار الملاح للطباعة والنشر، دمشق، (د.ت)، ص : 381.

2 ديوان أبي العتاهية. ص : 44.

واحلم وإن سفه الجليس فقل له حسن المقال إذا أتاك بهجره

فأحب الإخوان إلي أبشهم بصديقه، في سره أو جهره[1]

ويمكنني أن أستشف من بعض الأبيات أن الشعر العربي في العصر العباسي، اعتنى بتفصيل القول في الصفة الخلقية ذاتها، وربطها بغيرها من الخلال الحميدة خصوصا، وهذا ما يبرزه ابن الرومي (-283هـ) قائلا :

أرى الصبر محمودا وعنه مذاهب فكيف إذا لم يكن عنه مذهب

هناك يحق الصبر والصبر واجب وما كان منه كالضرورة واجب

...

هو المهرب المنجي لمن أحدقت به مكاره دهر ليس منهن مهرب

أعدُّ خلالا فيه ليس لعاقل من الناس. إن أنصفت عنهن مرغب

لبوس جمال جنة من شماتة شفاء أسى يثنى به ويثوب

فيا عجبا للشيء هذي خلاله وتاركه ما فيه من الحظ أعجب[2]

وإذا كان الشعر العباسي حافلا بالنزعة الأخلاقية من صبر وحلم وإباء الضيم، فإنه استوفى في غير غرض غيرها، من مثل الجود والصفح والرفق والتضحية وما يقابلها من بخل وعداء وغلظة وقصور. ولعل أبا العلاء المعري (-449هـ) ممن عبر عن نزعة أخلاقية، شابتها مسحة فلسفية، وهذا من خلال نظرته الخاصة إلى الحياة والدين والميعاد، إضافة إلى أن الخير

1 ديوان أبي فراس – دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1910م، ص : 64.

2 ديوان ابن الرومي – ج:1. نجيب الكيلاني - الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1924م، ص : 315.

والعمل به في نظره، لا يساومه صوم أم صلاة أم عبادة لدى إنسان لم تتحرر ذاته من الرذيلة، كالشر والغل والحسد؛ فيقول :

إذا نزل المقدر لم يك للقطا نهوض ولا للمخذرات إباءُ[1]

. . .

ما الخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على جسد

وإنما هو ترك الشر مطرحا ونفضك الصدر من غل ومن حسد[2]

وهناك شعراء كثيرون مثلوا النزعة الأخلاقية في العصر العباسي[3].

ومثلما أشرت إليه سابقا، فإن النزعة الأخلاقية في الشعر العباسي موروثة عن القدماء، وأن شعراء بني العباس قد تعاملوا مع هذه القضية بالطريقة نفسها التي تعامل بها الشعراء القدماء مع الأخلاق؛ وهم على أية حال، شاركوا في التعبير عن النزعة الأخلاقية مشاركة فعالة مثلما أبنت عنه آنفا .

وللإشارة يمكنني أن أقدم إطلالة عن النزعة الأخلاقية في الشعر الأندلسي من خلال العنصر الآتي.

- النزعة الأخلاقية في الشعر الأندلسي :

ركزت في دراسة هذه القضية على بعض الشعراء لأن عددهم كثير كثرة شعرهم المعبر عن هذه النزعة.[4]

---

1 لزوم ما لا يلزم – أبو العلاء المعري. مج :1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1381هـ/1961م، ص: 42.

2 م.ن. مج.ن، ص : 375.

3 منهم بشار بن برد وأبو نواس ودعبل الخزاعي وتميم بن المعز والشريف الرضي والفخري والبحتري وأبو تمام وغيرهم.

4 منهم ابن سهل والرمادي وابن الزقاق والأعمى التطيلي وابن لبانة وابن الأبار، وغيرهم ليس باستطاعتي حصرهم ههنا.

ولقد تعرض ابن عبد ربه (-392هـ) في شعره إلى الكرم والعزة والصبر والرفق وغيرها من الخلال التي ضمنها في فنون شعرية متعددة، ووصف ممدوحه بالكرم والعز، على أساس أن السخي عزيز بين الناس ومثاب خير الثواب عند الله؛ قال :

أبا صالح أين الكرام بأسرهم أفدني كريما فالكريم رضاء

أحقا يقول الناس في جود حاتم وابن سناء كان فيه سخاء

...

عزيز عليهم أن تجود أكفهم عليهم من الله العزيز عفاء[1]

وأما إشارة الشاعر إلى الصبر فلأنه يرى اليأس أقرب إليه منه بحيث إن بكاءه أبعد عنه الصبر، كما أذهب عنه لذة العيش؛ فقال :

ما أقرب اليأس من رجائي وأبعد الصبر من بكائي

...

كيف لا، كيف ألذ بعيش مات صبري به ومات عزائي[2]

...

غير أني لا أطيق اصطبارا وأراني صابرا لانتكاثي[3]

ويصف ابن عبد ربه الحق بالوضوح، ويشبهه بالبدر الذي ينير الطريق للساري ليلا؛ فيقول :

الحق أبلج واضح المنهاج والبدر يشرق في الظلام الداجي[4]

---

1 ديوان ابن عبد ربه – تحقيق وشرح : الدكتور : محمد رضوان الداية. مؤسسة الرسالة، دمشق، سوريا ، 1979م ، ص : 15– 16.
2 م.ن. ص : 17-18.
3 م.ن. ص : 34.
4 م.ن. ص : 39.

وفي المقابل اعتنى ابن شهيد (-392هـ) باستثماره للخلال الحسنة، كالنفع وإباء الضيم والحلم والحزم والشجاعة؛ ولذلك فإنه شبه الرجل الذي لا ينفع مجتمعه بالمرأة، على أساس أن الذي يستحق معنى الرجولة، لا بد أن يكون ممن ينفع ولا يضر؛ حيث قال :

إن الرجال إذا تأخر نفعهم في كل معنى شبهوا بنساء[1]

ويفتخر الشاعر بإبائه الضيم، وترفع نفسه عن المن؛ فيقول :

وذادني كرمي عمن ولهت به ويلي من الحب أو ويلي من الكرم[2]

ويطابق ابن شهيد بين الحلم والكرم مشيرا إليهما في معرض رثائه لعلماء بلده الذين تميزوا بهاتين الخلتين؛ فيقول :

جزاهم بما حازوا من الجهل حلمه كريم إذا راء المكارم جاءها[3]

ويقول :

نفسي على آلائها وصفائها وبهائها وسنائها تتحسر

كبدي على علمائها حلمائها أدبائها ظرفائها تتفطر[4]

أما ابن زيدون (-464هـ) فقد أسهم هو أيضا في توظيفه لشيم أخلاقية كالوفاء والصبر والبأس، حيث عبر عن الوفاء في معرض العتاب دون أن يصرح بالمقصود الذي اعتراه، إنما اكتفى بوصف حبيبته بالوفاء، على الرغم أن الظنون التي حامت حول وفائها، والأقاويل التي قيلت عنها؛ يقول:

~~تظن الوفاء بها والظنون فيها تقول على من فرض~~[1]

1 ديوان ابن شهيد – جمعه : شارلز بلاط، دار المكشوف،ط :1، لبنان،، 1963م، ص : 17.
2 م.ن. ص :148.
3 م.ن. ص : 19.
4 م.ن. ص : 67.

نظم الوفاء بها والطول فيها تقول على من فرض I

ويرى ابن زيدون أن الصبر زينة، يتجمل بها، ويتحصن بها من اليأس، لأنه إذا صبر ولم ييأس، أدرك نتيجة الصبر التي تؤول به إلى نيل ما لم يكن في حسبانه؛ يقول :

ليس لي صبر جميل، غير أني أتجمل

ثم لا يأس فكم قد نيل أمر لم يؤمل[2]

ونجد ابن زيدون يشبه اليأس بالهزبر في صولانه، والجود بالبحر وما يحويه من نفائس؛ قال :

يأس كما صال الهزبر، إزاءه جود، كما جاش الخضم الخضرم[3]

هذا، وقد آثر ابن حمديس (-527هـ) ما يدل على نزعته الأخلاقية المحبذة للإقدام وإباء الضيم والشجاعة والندى والهداية والعز والوداد؛ وقد صور جرأته وإقدامه وذوده عن دين محمد الذي أبى الضيم في دعوته الشريفة، فقاتل كل جلاد ظالم، لينشر بعده العدل والمساواة والإخاء؛ فقال :

من كل ذمر في الكريهة مقدم صال لحر سعيرها الوقاد

. . .

ما صون دين محمد من ضيمه إلا بسفك يوم كل جلاد[4]

وينظر الشاعر إلى الذي يتصف بالهداية، على أنه ممن تمسك بسنن القدامى في الأخذ بمعاني الشجاعة والندى والبأس؛ وهي صفات لا تليق في نظر الشاعر بالمجرمين الذين وإن كانوا

---

1 ديوان ابن زيدون – شرح وتحقيق : كرم البستاني. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1399هـ/1979م، ص : 92.

2 م.ن. ص : 58.

3 م.ن. ص : 275.

4 ديوان ابن حمديس – قدم له : الدكتور : إحسان عباس. دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1379هـ/1960م، ص : 145.

أشداء، فإنهم دون العزة، بل إنهم إلى الذل والهوان أقرب؛ وهذا ما يفقدهم شدتهم وبأسهم؛ يقول :

من كان على سنن الشجاعة والندى بئس المضل فأنت نعم الهادي

. . .

أما شداد المجرمين فعزه أبقاهم بالذل غير شداد[1]

وتميز ابن خفاجة (-533هـ) بنزعة أخلاقية في الشعر العربي هو أيضا فأشاد بشيم فاضلة، كالحلم والتقوى والصلاح والصدق والإخلاص والخير؛ وحث عليها في شتى أغراض القول التي نظم فيها . وهو يرى في معرض المدح أن الجميل في ممدوحه حلمه وخلاله الحسنة التي تشبه عد رمل، لا يحصى؛ فيقول :

ويجمل في حباه طود حلم تعد خلاله، رمل الكثيب[2]

ويربط ابن خفاجة الصلاح بالتقوى، فيؤكد أن العمل الصالح لا يكون كذلك إلا إذا انتهج صاحبه منهج التقوى بالله؛ حيث قال :

لعمري لو أوضعت في منهج التقى لكان لنا في كل صالحة، نهج[3]

ويبدو الصديق الصادق والمخلص في نظر الشاعر ملجأ يأوي إليه، وعمادا يتكئ عليه في نوائبه؛ إذ يقول :

لله أي خليل صدق مخلص، أوهى به ركن، ومال عماد[4]

---

1 ديوان ابن حمديس. ص: 146-147.
2 ديوان ابن خفاجة – دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1381هـ/1961م، ص : 46.
3 م.ن. ص : 63.
4 م.ن. ص : 90.

ويرى الشاعر أن من معاني الخير الحق، هو أن يذود الصاحب عن صاحبه، فيمنع من أراد الإغارة على صديقه والانتهاك لشرفه وعرضه؛ فيقول :

لك الخير أي خير في رد صاحب مغير على عرض الصديق، مغامر[1]

وأشير في نهاية هذا العنصر والمدخل معا إلى أن النزعة الأخلاقية في الشعر العربي موروث قديم، ولبنة استغلها الشعر العربي في الجزائر خلال عهد الزيانيين حيث دعم شعراء العصر الزياني نزعة القدامى، وذلك بإرساء لبنة أخرى، لها أثرها في الشعر العربي بعامة؛ وقد حاولت توضيح ذلك في الدراسة الموالية التي سأحدد من خلالها النزعة الأخلاقية في العصر الزياني الأول.

1 ديوان ابن خفاجة. ص : 147.

الفصل الأول

النزعة الأخلاقية للشعر الزياني في العصر الأول

النزعة الأخلاقية في الشعر الجزائري القديم قبل العصر الزياني :

لم تعد النزعة الأخلاقية في الشعر الجزائري قبل العصر الزياني أن تكون حلقة تصل الشعر الأندلسي والعباسي والأموي والإسلامي والجاهلي. وهي واحدة من محطات التطور في الشعر الأخلاقي العربي على امتداد عصوره. فقد بدأت النزعة الخلقية تجلو وتتطور وتتأسس على يد طائفة من شعراء الجزائر قبل العهد الزياني، بيد أنهم فضلوا التحلي بالأخلاق الفاضلة، وتكريس جهودهم العلمية والعملية لنشرها بين الناس، ولم تختلف هذه الطائفة عن المسلمين الأوائل سواء في طرقهم لبعض الموضوعات، أو تجديد بعض أفكارها ومعانيها، بل ساروا سويا في صف واحد، وعلى نهج الكتاب والسنة فدوا أنفسهم، وملؤوا قلوبهم إيمانا وإخلاصا ووفاء،مريدين بذلك إرساء دعائم الإسلام في ضوء نزعة أخلاقية جديدة، تنضاف إلى ما عرفه المسلم في سابق العهود الإسلامية والعربية.

ويكمن الفرق بين النزعتين الخلقية عند القدماء من المسلمين والعرب وبين شعراء الجزائر قبل العصر الزياني في الفاصل الزمني والبيئي والواقع الإنساني والحضاري الذي طبع كلتا النزعتين بخصائص معينة، مع أن هناك تشابها كبيرا بين النزعتين من حيث الأصول، والمبادئ الأخلاقية، التي تأخذ بها كل نزعة.

والجديد في نزعة الشعراء الجزائريين على خلاف غيرهم، يبدو جليا في التزامهم بنقل مستجدات زمانهم وبيئتهم وعلاقتهما بمختلف الأخلاق والسلوكات الإنسانية، مما يوجب تفرد هذه النزعة في الشعر عن سابقتها، وأن يكون لاستقلالها أثر فاعل في تطورها وتطور الشعر الأخلاقي العربي والإسلامي عموما؛ وقد ذاع صيت شعراء لقوا الحظوة بفضل جهادهم في سبيل الله وذودهم عن حمى الإسلام، وانهماكهم في طلب العلم، ونبل مقاصدهم وغاياتهم في

ذلك، لاسيما أولئك الذين كانوا أهلا للكرامات والذين تناقل الأتباع أخبارهم، كما عرفهم الناس معلمين ومربين ومصلحين ومرشدين، لهم أثر بالغ في وسطهم الاجتماعي.

ولا بد من الإشارة إلى أن دراستي للنزعة الأخلاقية في شعر هؤلاء الشعراء لن تختلف عن الطريقة التي سقتها من قبل، بدليل أن الشعر العربي القديم في الجزائر قد اهتم أصحابه بالأخلاق بمثل ما اهتم السابقون بهذه القضية، أضف إلى ذلك أنني سأقتصر في تحديد معالم النزعة الأخلاقية في شعر عربي قيل قبل العصر الزياني الأول وفي فترة قريبة منه، هي عهدة بني حماد حيث عرفت هذه الفترة عدم استتباب للأوضاع الأمنية ونشوب الصراعات والحروب والفتن بين الحكام المسلمين، وضياع أغلب الإبداعات الشعرية والمؤلفات الأدبية[1]، ومع كل ما ذكرنا من عوامل سلبية فإن الشعر العربي في الجزائر كان له حظ وافر من العناية بالقضية الخلقية حيث اشتهر شعر النسيب الذي دعا أصحابه إلى الحياء والاحتشام والوقار، كما اشتهر شعر المدح بغلبة المسحة الدينية عليه، إذ طالب أنصاره بتطبيق شريعة الله وإنصاف المظلوم وإكرام الضيف وحماية الجار.

لقد أشار عمر بن فلفول (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) في النسيب إلى شيمة الصبر وربطها بعواطفه الجياشة، فاعتبر الصبر سلاحا لإخماد نار العشق ومواجهة الغائل. بل إن صبره مفتاح لفرج الله، وهذا بوصل الحبيب الذي بان عنه وطال فراقه له ؛ قال :

ألا للصبر مفزع عاشق ... وللصبر أحرى بي وإن غال غائل

سأصبر حتى يفتح الله في الهوى ... بوصل حبيب طال فيها الطوائل[2]

---

[1] تاريخ الجزائر في القديم والحديث – مبارك بن محمد الميلي. طبع بيروت، 1963م، ص : 217.

[2] خريدة القصر وجريدة العصر – عماد الدين الأصفهاني (قسم شعراء المغرب). تحقيق : المرزوقي. المطوي. الجيلالي. الدار التونسية للنشر، ط :1، تونس، 1966م، ص :179.

وأشاد علي بن الزيتوني (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) في مدحه بخلال اتصف بها ممدوحه، من مثل التقوى والإحسان وحفظ الأمانة والعدل وإباء الضيم والعزة والأنفة والجود والسخاء؛ وبعد ممدوحه عن المحارم، لأنه تقي يأمل في القرب من ربه، وفي تقواه ما يدل على أنه برّ وعطوف ورؤوف وسمح، إضافة إلى أنه محسن إلى الأيتام لا يقهرهم؛ وهو في نظر الشاعر أمين وصادق وحافظ للأمانة، وعادل أفشى عدله بين الناس، لا يخشى في حكمه أحدا؛ وهو أبي وعزيز وأنوف، ظفر بالمعالي والثناء، وأغدق البر بنداه، لا يناوئه مناوئ؛ قال :

نهاه عن محارمه نهاه وقربه لخالقه تقاه

...

هو البر العطوف على البرايا وبالأيتام يرحم من أتاه

...

أمين، عدله غمر البرايا فما يخشى على أحد قضاه

...

أبي، شأنه طلب المعالي ومن يحصي ثناه أو نداه

...

لقد ظفرت يد علقت نداه ومن ناواه قد تبت يداه[1]

ومدح يوسف بن المبارك (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) بني حماد، فأشاد بمحاسن أخلاقهم، من مجد وكرم وشجاعة واحترام وتقديرهم لحقوق الإنسان؛ ففي صورة شعرية يصف ممدوحيه بأنهم نالوا النصر والنجاح بسمر القنا، وهم آل كرم متجذرين في حمل هذه الصفة أبا عن جد

[1] خريدة القصر وجريدة العصر. ص: 182.

ولهم مناقب شتى كالمجد والشجاعة وليسوا جبناء بل صناديد أمام أعدائهم وحماة للعرض والشرف، يقدرون حق الجار ورفعته ويغدقون بجودهم على الضيف، ويدركون العز بالصفاح البواتر؛ يقول :

هناكم النصر ونيل النجاح في يومكم هذا بسمر الرماح
فأنتم الصيد الكرام الألى شادوا العلا بالنائل المستماح
ما منكم إلا همام حوى مناقب جلى ومجدا صراح
...
وترفعون الجار فوق السهى وتكرمون الضيف مهما استماح[1]

ولم يختلف ابن أبي المليح الطبيب (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) عن سابقيه في تأسيس نزعته الأخلاقية في الشعر حيث نجده يمدح مقرا بعز الممدوح وهدايته وأدائه حق الله، بما فرضه عليه من صلاة ونافلة؛ ولعل ابن أبي المليح وغيره من الشعراء الذين ذهبوا هذا المذهب، إنما قصدوا إلى أنَّ الحاكم المتخلق بالخلال الحسنة، لا بد أن يكون عادلا ومنصفا بين رعيته، وأن يكون مرتبطا أيما ارتباط بما سنه القرآن الكريم والحديث الشريف من أخلاق فاضلة، يفضل بها صاحبها، ويعز في وسط رعيته بخاصة؛ فعن شيمتي العز والحق اللتين ربطهما الشاعر بالهداية، يقول :

وقام لواء النصر يتبع راية بها العز معقود عليها متمم
فلما قضى حق الصلاة معظما ثنى والهدى في وجهه يتوسم
فلا زال يقضي نفله وفروضه وبرد علاه بالمدائح معلم[2]

---

[1] خريدة القصر وجريدة العصر. ص: 183.
[2] م.ن. ص: 183-184.

واهتدى حماد بن علي (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) في شعره إلى ربط شكواه – وهو غريب عن بلده – بصفات خلقية يواجه بها الأعداء الذين كنوا له الإهانة والقهر والعنف والزجر؛ وقد اختار الشاعر لمجابهتهم خلالا حميدة من مثل القناعة التي تؤدي إلى اليسر بعد العسر؛ فقال :

أراني قد أصبحت في قطر باجة غريبا وحيدا في هوان وفي قهر

...

ثناني عنه عامل الثغر وانثنى يقابلني بالعنف منه وبالزجر

وقال : اقتنع واقنع برزق تناله – بلطف – لعل اليسر يذهب العسر[1]

ويشير ابن رشيق المسيلي (–456هـ) إلى عز ممدوحه، فيربط ما تحلى به من عز بهداه، إذ إن عزه في نظره هو الذي يقوم على الهداية والتقوى؛ كما يشير إلى جود الممدوح، فيشبه جوده بالنبت الخصب الذي يفرز البركة والخير كلما سأله سائل حيث قال :

معز الهدى لا زال عهدك دانيا وزينت الدنيا لنا بحياتكا

...

وما نحن إلا نبت جودك كلنا وكل نبات الأرض من بركاتكا[2]

أما عن خلة الصبر فيشيد ابن رشيق بهذه الشيمة، ويدعو إلى التحلي بها في الأمور الصعبة، من مثل تنقل الإنسان في البحر، فإن هو إنسان أحس بمخاطر الخضم، فما عليه سوى أن يطفئ جذوة هذا الإحساس ببديله الذي هو الصبر؛ قال :

البحر صعب المذاق مر لا جعلت حاجتي إليه

أليس ماء ونحن طين؟ فما عسى صبرنا عليه[3]

---

[1] خريدة القصر وجريدة العصر. ص: 184- 185.
[2] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – أبو الحسن علي بن بسام، ج:1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939م، ص :428.
[3] م.ن. ص : 427.

ويربط ابن رشيق الصبر بغرض شعري كثيرا ما نظم فيه شعراء العربية وهو الشوق. ولعل لظى شوقه وتوقه داعيان إياه إلى التحلي بهذه الشيمة التي لم تسعفه في إخماد ثورة عاطفته المتوقدة بالحنين؛ إذ قال :

وبتُّ أداري الشوق والشوق مقبل علي وأدعو الصبر والصبر معرض[1]

وأنكر ابن رشيق ما آل إليه المسلمون من اقتتال، ونقضهم للعهود وغدرهم بالجوار وسبيهم للحريم وظهورهم بمظهر الذل والهوان أمام العدو المتربص بهم، إضافة إلى استنهاض همم المسلمين الذين لا يمتون بصلة إلى هذه الصفات الدنيئة؛ وذلك لأن دينهم يدعو إلى المساواة والإخاء والعدل وإنصاف المظلوم والعفة عن النيل من حرمة النساء والجيران وغير ذلك من الشيم الخلقية التي أومأ إليها الشاعر، لعل الخلف من المسلمين يتداركون ما لم يكترثه أولئك الذين وصفهم بسوء الخلق، حيث قال :

نقضوا العهود المبرمات وأخفروا ذمم الإله ولم يفوا بضمان

فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا سبي الحريم وكشفة النسوان

...

والمسلمون مقسمون تنالهم أيدي العصاة بذلة وهوان

ما بين مضطر وبين معذب ومقتل ظلما وآخر عان

...

هربوا بكل وليدة وفطيمة وبكل أرملة وكل حصان[2]

---

[1] عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب – محمد النيفر. ج:1، المطبعة التونسية، ط:1، تونس، 1351هـ، ص :53.

[2] معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان – الدباغ أبو زيد عبد الرحمان، ج:1، طبعة الخانجي، مصر، 1968م، ص :18-20.

وأشار محمد بن زكرياء القلعي الأصم (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) إلى خصاله الحميدة، من حياء وعفة عن الفحشاء والريب؛ وقد فضل خصلة الحياء على خصلتي الكرم والحسب، بيد أن العفة مع الضيف والجار في نظره تفوق بكثير نزعة الإنسان إلى الكرم أو تفوق نزعته إلى الحفاظ على النسب والشرف والحسب، إذ قال :

لي حرمة الضيف لو كنتم ذوي كرم وحرمة الجار لو كنتم ذوي حسب

...

كم لا أزال على حال أساء بها منكم وأغضي على الفحشاء والريب[1]

ومدح ملوك المغرب، فذكر لأحدهم نداه، وهي خلة ضاهت في نظره الغمام، بل فاقته من حيث سعة ندى صاحبها؛ يقول :

ملك إذا طلب الغمام يفوق ما في وسعه فعلى نداه يميل[2]

ويفتخر الشاعر علي بن شعيب الأشوني (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) بخلاله الحميدة، وينظر إلى نفسه على أنه لبيب ونابه، يغري الدهر بخصاله ولا يغريه هذا الدهر إن جار عليه؛ ويدل على أنه حر ودؤوب النشاط وشبيه بقارون في ثيابه حيث يقول :

إن جار علي دهر جائر فالدهر أغري باللبيب النابه

...

حر كساه العدم ثوب كموله وكأنما قارون في أثوابه[3]

---

[1] خريدة القصر وجريدة العصر . ص :343.

[2] المطرب من أشعار أهل المغرب – أبو الخطاب عمر بن دحية. تحقيق : إبراهيم الأبياري وجماعة. المطبعة الأميرية، ط:1، القاهرة 1954م، ص: 52.

[3] الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة – محمد بن عبد الملك المراكشي. ج:1، تحقيق : الدكتور : إحسان عباس. نشر دار الثقافة، بيروت، 1965م، ص :391.

ويحث الشاعر عمر بن خليفة اليدوخ القلعي (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) الإنسان على فعل الخير مع كل إنسان؛ ولعل الدليل على ذلك كون الشاعر قد ربط الخير لدى الفتى بالتقوى؛ فقال :

وخير أنس الفتى تقوى تصاحبه والخير يفعله مع كل إنسان[1]

هذا، وقد توخيت من خلال هذه النماذج الشعرية ما يدل على أن للنزعة الأخلاقية وجودا في الشعر الجزائري القديم قبل العصر الزياني الأول من وجهة؛ كما أن لهذه القضية صلة دائمة بالشعر العربي في العصر الزياني الأول من وجهة أخرى، أضف إلى ذلك أنني حاولت أخذ صورة موجزة، تضيء أمامي سبيل الدراسة على الرغم أن هناك شعرا صور هذه النزعة على يد طائفة أخرى من شعراء بني حماد[2].

- النزعة الأخلاقية في العصر الزياني الأول – 633هـ/760هـ.

ترتبط دراستي للنزعة الأخلاقية في الشعر العربي بمدينة تلمسان التي كانت في وقت مضى عاصمة لدولة بني زيان والمغرب الأوسط؛ وحيث كان زمام الحكم والتسيير بأيدي ملوكها وسلاطينها، فإن أية دولة لا بد أن تكون مركزا للعلم وللأدب بخاصة. أما عن الأدب، فإن تلمسان احتضنت شعراء كثيرين، نظموا في شتى أغراض القول التي نظم فيها شعراء العربية من قبل، كما أسهموا في بلورة نزعة أخلاقية بمثل ما أسهم سابقوهم في ذلك.

وبناء على ذلك فإنني سأستهل دراسة النزعة الأخلاقية للشعر في هذه المنطقة بدءا بالشعراء الذين عاشوا في العصر الزياني الأول ولم تقف المصادر والمراجع على تحديد تواريخ ولاداتهم

---

[1] نكت الهميان في نمت العميان – صلاح الدين خليل الصفدي. المطبعة الجمالية، القاهرة، 1911م، ص : 221.

[2] منهم بكر بن حماد التهرتي وأبي مدين شعيب وأبو الفضل أبن النحوي وأبو عبد الله بن داوود عبد الله بن خليفة القرطبي وعبد الخالق بن إبراهيم القرشي ومحمد بن محمد التخمي وغيرهم.

ووفياتهم سوى أنها نسبتهم إلى الفترة الممتدة بين 633 و 749 هجرية. ويمكنني بعد ذلك أن أتعرض لغيرهم من الشعراء الذين دونت المصادر تواريخ ولاداتهم ووفياتهم.

وللإشارة فإنه من غير الممكن حصر عدد الشعراء الذين صوروا نزعة أخلاقية معينة في الشعر خلال هذه الفترة، لأن هذا العمل يتطلب من أي دارس إنجاز مؤلف وأكثر، بدليل كثرتهم وكثرة شعرهم الذي اهتم بالقضية الأخلاقية؛ ولذلك فإنني سأقتصر على ذكر بعضهم وخاصة أولئك الذين حرصوا مرارا على تثبيت الأخلاق الحميدة ونشرها بين المسلمين.

فقد وظف العبدري (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) في معرض المدح شيما خلقية كالندى والحسب والخلق الرضي والعزة والصبر. ورأى أن سيادة ممدوحه وعزته وتعاليه وشرفه، إنما هي خلال قائمة على سخائه وكرمه، ونداه إنما هو شبيه بالبحر في اكتنازه للخيرات؛ كما شبه الشاعر ممدوحه بالبدر الذي ينير السبيل أمام كل من أراد أن يكون كريما وسخيا؛ أضف إلى ذلك أن الشاعر نكر الذم عن شخصه وعن ممدوحه الذي اتصف بالخلق المرضي؛ فقال :

أيا معنى السيادة والمعالي ... ويا بحر الندى بدر الندي

أما وبحقك المبدي جلالا ... وما قد حزت من حسب علي

وما بيني وبينك من ذمام ... وما أوتيت من خلق رضي

...

وفي تنس نسيت جميل صبري ... وهمت بكل وجه وضي[1]

[1] عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية- أحمد العنبريني- تحقيق : أحمد بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1389هـ/1970م، ص : 283-284.

وحيث أشار العبدري إلى صبره، فإنه يدلنا عن نسيانه لهذه الخصلة بأرض نأت عن موطنه، وهذا بالنظر إلى طبيعة حياته التي فرضت عليه الرحلة من بلد إلى آخر في أرض المغرب العربي على الخصوص.

وإن من أخلاق المتخلق أن يمن على السائل بخير، ولعل من هذا الخير أن يجود الجواد بجوده وبعفوه؛ فقد ربط محمد الإدريسي الجزائري (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) بين هذه الخلال الحميدة على أساس أنه سأل ممدوحه المن، وهو في نظر الشاعر الجود أم العفو ذاته أي أن من جرد الممدوح أن يكون من أهل الصفح والعفو؛ فقال :

يا من على جوده المعهود أتكل ويا ملاذي إذا ضاقت بي الحيل

غرقت من بحر آثامي فخذ بيدي وامتن بعفو فإنني خائف وجل[1]

ويشير محمد الإدريسي إلى خلة الصبر في معرض الشوق وهو إذ ذاك يسأل أهل المنطقة التي اشتاق إليها لكي يؤازروه بالصبر الجميل، وهو صبر انصهر في نظره واضمحل باضمحلال شمسه. وعلى الرغم من ذلك، فإن الشاعر ما فتئ يشيد بحلاوة هذه الشيمة التي ارتبطت بصبابته. وحيث أثرت الصبابة في نفسيته، فإنه يصرح بعدم قدرته على الاصطبار، بل يدل عن أن قوة صبره مؤسسة على قضية أخرى، هي الرفق، بحيث يسأل المرتحل أن يرأف به ولو برفقه عليه، لأن رفقه يضمد جراح إحساسه بالفراق وبالشوق؛ قال :

ويا ساكني الجرعاء إن كان عندكم نصيب من الصبر الجميل فواسوني

. . .

فيا حبذا يوم فقدت به الحجى وودعت إذ ودعت شمسه الصبر

---

[1] عنوان الدراية. ص: 287.

...

وإن حلت لك ألفاظ نرددها ما بيننا فهناك الصاب والصبر

...

فعندها أيقنت نفسي لغيبتها وأقسمت مهجتي أن لست أصطبر

سألتك الله يا حادي المطي بهم رفقا علي لعل الصدع ينجبر[1]

ويعرض محمد الإدريسي لقضايا خلقية أخرى، كالظلم والحزم والحذر؛ وإذ عبر عن توقه إلى حبيبته، فإنه يصرح بظلمها له، كما يصرح بأن السبيل الوحيد لمواجهة هذا الظلم، هو التحلي بالشجاعة. ولكن الشجاعة والحزم والحذر كلها لا تنفع الشاعر في أغلب الأوقات، بيد أنه لا جدوى منها إذا تعلق الأمر بظلم الفؤاد الذي اتقد حبا وشوقا للمحبوب؛ قال :

تقول والحسن يطغيها فتظلمني ولا موازر إلا صارم ذكر

دع الحسام وضع السلاح فما في كل وقت يفيد الحزم والحذر

ما للمهند حكم في محلتنا بل للمهند فيها الحكم والنظر[2]

ولقد استثمر محمد بن عبد السلام الدلسي (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) شيما خلقية عديدة، من مثل العز والصبر والحلم والكرم؛ وحيث أشار إلى العز، فإنه افتخر بعزة نفسه التي لا يدنسها أي إنسان في نظره، ولا ينال منها مهما كانت منزلته في الحياة؛ ولعل السبب فيما ذهب إليه الشاعر هو إيمانه بالله الذي وهبه هذه الحلة، فهو تعالى صاحب العزة على الإطلاق، يهب العز من يشاء، ويذل من يشاء؛ قال :

كفى بي عزا أنه لي سيد وأني عبد لا أريد له عتقا[3]

---

[1] عنوان الدراية . ص: 288-294.
[2] م ن. ص :293.
[3] م.ن. ص :294.

ويشيد الدلسي بصفات خلقية من مثل الكرم والشجاعة والإقدام والجرأة، فيفتخر بنفسه، مشيرا إلى أنه ينتمي إلى قوم تحلوا بالنوال وهتفوا به، كما تحلوا بالشجاعة والإقدام والجرأة؛ قال :

من معشر بذل النوال شعارهم وهم الأسود لدى احتدام الباس

يذكون نيران الوغى بأسنة ولدى القرى يذكون بالأقباس[1]

أما ابن جنان، فهو كغيره شاعر لم نقف على تاريخ ولادته ووفاته سوى أنه صنف من ضمن شعراء المائة السابعة ببجاية أي أنه ينتمي إلى العصر الزياني الأول؛ وقد نزع منزعا أخلاقيا في الشعر، عرض من خلاله إلى سمتي النزاهة والسفاهة وما يترتب عنهما من وفاء وعدمه؛ وحيث كانت الصفتين نفسيتين واجتماعيتين قبل كل شيء، فإن ترك النزاهة في نظر ابن جنان ليست إلا امتثالا للسفاهة والنذالة؛ ولذلك استعار للسفاهة لباسا، ليبين مدى تأثيرها في خلق المرء السفيه الذي لا يجد مناصا من تدني قيمته الإنسانية في الدنيا وفي الآخرة، بحيث يختلف السفيه في نظر ابن جنان عن الوفي الذي يدل بوفائه عن علو همته في المجتمع؛ فهناك فئة الأخيار النزهاء، وهناك فئة الأشرار السفهاء؛ إذ قال :

ترك النزاهة عندنا أدنى إلى وصف النزاهه

ما ذاك إلا أنها تدعو الوفور إلى الفكاهه

وإذا امرؤ نبذ الوفا فقد تلبس بالسفاهه[2]

ويعبر ابن جنان في موضع آخر عن قوة إحساسه بالبين ، ويصرح بأن لا مناص من هذا الإحساس إلا بالتداوي بالصبر الذي يضعف حينا، كما يقوى حينا آخر، كلما آمن بأن

[1] عنوان الدراية. ص :299.
[2] م ن. ص :306.

التحلي بهذه الخصلة، هو مسلك لإدراك النجدة من الله الذي ينقذه من تأثره بأشجان بينه حيث يقول:

البين يقتلني والصبر يخذلني فمن يصبر يرى في الله إنجادي[1]

ولعل تعلق ابن جنان بأهله قد دفع به إلى التصريح بوفائه وبإخلاصه لكل من فارقه من أحبة وبان عنه؛ وقد أكد هذه الخصلة التي طالما ارتضى أن يكررها، كلما عاودته ذكرى الأحبة الذين بانوا عليه؛ فيقول :

واقرأ سلامي على تلك الخيام كما يرضى الوفاء بتكرير وترداد[2]

وبالمثل فإن المؤرخون لم يؤرخوا لميلاد ووفاة الشاعر أحمد بن أبي محلى السجلماسي، على الرغم من أن الغبريني قد ذكره إلى جانب شعراء المائة السابعة ببجاية ؛ وحيث يعد الشاعر فقيها، فإنه دلنا في شعره على نزعة أخلاقية، ووصف قبائل بني عامر بالكفر بعد أن ثوت تحت سلطان الكفار، ثم يعيرهم مقتديا في ذلك بأخلاق جيرانهم الذين عرفوا بالوفاء وبالإخلاص، فنالوا في نظره المغفرة الإلهية، نظرا لسلوكاتهم الأخلاقية المحمودة؛ والشاعر إذ ذاك يقصد إلى تحفيز المسلمين على نيل العلا بدحض العدو، والذود عن حمى الإسلام والمسلمين، والتشبث بالمبادئ والقيم أخلاقية. ثم يوجه خطابه مناجيا أهل الإسلام في كل شبر من الأرض، سواء عليهم أكانوا عربانا من آل هاشم لم يصبروا على الخنوع والذل، أم كانوا أتراكا وولاة على المسلمين ممن حافظوا على عهد الله ورسوله وصحبه وتابعيه.

ويناشد السجلماسي المسلمين، لأنه غيور على دينه، ومتأثر بفعل الظروف السياسية التي واكبت تفكك المسلمين بسبب انشغال الحكام في مختلف الأقاليم بأخلاق لا تمت بصلة إلى

---

[1] عنوان الدراية. ص :305.
[2] م ن. ص :306.

دينهم ولا إلى القيم الخلقية الحسنة، كعنايتهم ببناء القصور الفخمة، والولع بالبذخ والترف والمجون والغناء والرقص وغيرها من الأخلاق التي جعلتهم يستبدون بملكهم وبرعاياهم الذين هم لا يخدمون إلا العدو المنتهك لحرمة الدين وأهله؛ وتعبيرا عن هذه النزعة الأخلاقية، يكشف لنا السجلماسي عن غايته النبيلة في شعر أخلاقي تطبعه مسحة دينية اجتماعية وسياسية ثورية، يهدف إزاءهما إلى أن من واجبات الحاكم الأخلاقية التحلي بالوفاء وبالإخلاص، وبالصبر، وبإباء الضيم وبالعزة، وبالغيرة على الدين والوطن والأهل والتضحية لهم جميعهم أي إن حياة الدولة والأمة والمجتمع قائمة على الأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة؛ يقول :

فمن مبلغ عني قبائل بني عامر ولا سيما من قد ثوى تحت كافر

...

وجيرانهم في الغرب من كل ماجد طويل القنا أهل الوفاء والمغافر

ويا معشر الإسلام في كل موطن وفي كل ناد سالف ومعاصر

ويا سادة العربان من آل هاشم وغيرهم بالله ما صبر صابر

ويا معشر الأتراك يا كل عالم وكل ولي حافظ للأوامر

أناشدكم بالله ما عذر جمعكم لدى الله في وهران أمر الخنازر[1]

وقد صرح عمر بن دحية الكلبي (-633هـ) بوفائه، وافتخر بهذه الخصلة أمام الذين خاطبهم وسألهم أمر الوفاء بالعهد؛ فقال :

وأنا المقيم على الوفاء بعهدكم يا مالكين وفيتم أو خنتم[2]

---

[1] تاريخ الجزائر العام – عبد الرحمن الجيلالي. ج.1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، (د.ت)، ص :204

[2] عنوان الدراية.ص : 231.

لقد تعرض ابن دحية إلى خلة الصبر في معرض النسيب، وربط بين هذه الصفة وعاطفته المتأججة بالفراق حيث أظهر تألمه بسبب رحيل محبوبته مع الركب، كما تألم لفقدانه الصبر الذي بدا له مرتحلا برحلة الركب؛ قال :

ورحلتم بالقلب يوم رحلتم وظعنتم بالصبر يوم ظعنتم[1]

وهو يشير إلى قضيتي العدل والعز، فينسبهما إلى أفضل الخلق سيدنا محمد (ص) ، ويدل على أن العدل الحق هو عدل المصطفى (ص) ،إضافة إلى أن عزه (ص) ، ليس كمثله عز الملوك والجبابرة الذين يدعون إلى إرساء هاتين الخلتين، ولذلك يقول :

والعدل بالملك الهمام محمد بادي المنار لكل من يتظلم

عز الملوك الكامل الشرف الذي لعلائه السبع الكواكب تخدم[2]

وتأثر ابن ميمون القلعي (-673هـ) بالدين الإسلامي، واكتسب خبرة اجتماعية في حياته، فدعته الضرورة الدينية والاجتماعية إلى التعبير عن نزعة أخلاقية، أشار من خلالها في معرض النصح والإرشاد إلى أخلاق، من مثل الكرم والبخل واللبابة، ودون أن يفصل القول في هذه الخلال، اكتفى بالتذكير بالعبر و بالمغازي ، وهو يهدف إلى تعليم مجتمعه وتوجيهه صوب الأخلاق الفاضلة، إضافة إلى تبيان رغبته في إصلاحه وتهذيبه؛ قال:

اعمل لأخرى ولا تبخل بمكرمة فكل شيء على حد إلى قدر

...

أنظر لمن باد تنظر آية عجبا وعبرة لأولي الألباب والعبر[3]

---

[1] عنوان الدراية. ص : 232.
[2] م ن. ص : 232.
[3] م.ن. ص : 97.

ولم يختلف أحمد الشاطبي (-674هـ) في نزعته الأخلاقية ذات الطابع الديني والاجتماعي، بيد أن الوازعين الديني والاجتماعي، دفعا به إلى استثمار قضايا خلقية مختلفة في غرض النصح والإرشاد؛ فقد أشار إلى الخداع وعلاقته بالدين، كما أشار إلى الصبر على الأذى ومجانبة ذوي السوء الذين سماهم كلابا، وهو إذ ذاك يدلنا على استفحال هذه الأخلاق في مجتمع عصره من وجهة، وأنه يقوم شخصيا بدور الإصلاح والإرشاد والتهذيب من وجهة أخرى؛ قال :

لا يخدعنك عن الدين الهدى نفر لم يرزقوا في التماس الحق تأبيدا[1]

...

دنياك مهما اعتبرت جيفة قد عرضت فرصة انتهاب

إن شئتها فاحتمل أذاها واصبر على خلطة الكلاب[2]

أما عبد الحق بن عمر البجائي (-675هـ) فيتحدث في معرض الغزل الصوفي عن شيمة يتحلى بها الإنسان المتأدب، وهي حفظ السر وكتمانه. ويبين مدى حرصه على التخلق بهذه الخصلة التي شبهها بالثوب، لما للثوب من أهمية في ستر الجسم وصونه من آثار العوامل الخارجية عنه؛ فكذلك للسر دور في العلو بهمة كاتمه حيث ربط بين هذه الخلة والدين، بدليل أن السر الذي يكتمه هو سر مكنه الله منه، ولا يمكن لمن أودعه أن يفشي به؛ قال :

ودنت فكاشفت القلوب بسرها وسقت شراب الأنس منها كوثرا

...

وبها ركبت زواخر من حبها ولبست سر السر ثوبا آخرا

[1] عنوان الدراية. ص : 111.
[2] م ن. ص : 107.

فمتى أردت إبانة عن بعض ما في القلب من سر مصون عبرا

...

لو كان سر الله يكشف لم يكن سرا ولكن لم يك ليذكرا[1]

ولقد استثمر محمد حافي رأسه(-680هـ) خلة الصبر في معرض مدحه لمعلمه، وهذا نظرا إلى الوظيفة الجليلة التي يوفرها التعليم للإنسان في حياته، إذ من بين ما يلقنه المعلم للفرد هو أن يحثه على التحلي بالصبر الذي يبدو في نظر الشاعر جميلا، إذ يقرن الشاعر بين الصبر الجميل والعلم، ويثني على معلمه الذي علمه، والذي يستحق في نظره كل أجر، وكل سلوان؛ قال :

ومعلمي الصبر الجميل بهجره فثنى فؤادا لم يكن عنه ينقني

لا بد من أجر لكل معلم وإلى السلو ثواب ما علمتني[2]

وإذا كانت دعوة الشاعر ههنا تهدف إلى تعليم الخلق الحسن للمجتمع، فإنه يدعونا في صورة شعرية أخرى إلى التحلي بالتواضع وبالاعتدال وبالبساطة في الحياة، وهي شيم يومئ إليها الشاعر دون أن يصرح بها، والدليل على ذلك أنه اعتبر شأن المعتقد في الرياسة وهو كبير السن من الأمور المنبوذة والممقوتة، لأن تمني الإنسان اعتلاء هذا المنصب وهو يعيش آخر حياته الدنيا، إنما هو انسياق إلى الكبرياء والتفاخر والأنانية، وهذا ما يبدو باطلا في نظر الشاعر؛ يقول :

ومعتقد أن الرياسة في الكبر فأصبح ممقوتا بها وهو لا يدري

---

[1] عنوان الدراية. ص : 87-88.

[2] فوات الوفيات- محمد بن شاكر الكتبي. ج : 2. تحقيق : إحسان عباس. دار صادر، بيروت، 1973م، ص : 445.

يجر ذيول الكبر طالب رفعة ألا فاعجب من طالب الرفع بالجر[1]

ولم يختلف محمد بن عبد الله بن الخطاب (-681هـ) عن سابقيه في الدوافع الدينية والاجتماعية التي أفضت به إلى توظيف شيمة الصبر مثلا في غرض الزهد؛ فقد دعا الإنسان إلى التحلي بهذه الخلة، وربطها في الآن ذاته بالقناعة وبالكرامة ، بيد أن الإنسان الصبور في نظره هو الكريم، وهو الأبي الذي يصبر كلما داهمته الشدائد والمحن، ويقنع كذلك بكل ما كتبه الله له من رزق ، وينأ عن سؤال البشر، لأن الذي يستحق السؤال في رأي الشاعر ويقبل منه كذلك إنما هو الله لا غير؛ قال :

اقنع بما أوتيته تنل الغنى وإذا دهتك مصيبة فتصبر

واعلم بأن الرزق مقسوم فلو رمنا زيادة لم تقدر

والله أرحم بالعباد فلا تسل أحدا تعش عيش الكرام وتؤجر[2]

وأسهم عفيف الدين التلمساني (-690هـ) بنزعة أخلاقية، نستشف من خلالها خصلة فاضلة، وهي حب الوطن والأهل معا، وحيث نأى عن وطنه تلمسان، انقدت شاعريته، وأبدى إذ ذاك إخلاصه وحبه في شعر أبان فيه عن أشجان غربته وتوقه إلى بلده، والرمز بغربته هذه إلى الحب الإلهي الذي كان ينزع إليه بعض من شعراء عصره؛ قال :

غريب الحمى فلي في حماكم نزيل في خيامكم غريب

عجبت بناركم بربا المصلى ومنها الصب في نجد يذوب

ونشركم على قرب وبعد إلى المشتاق تحمله الجنوب[3]

---

[1] فوات الوفيات. ص : 445.

[2] الإحاطة في أخبار غرناطة- لسان الدين ابن الخطيب. مج :2. تحقيق: محمد عبد الله عنان. الشركة المصرية للطباعة والنشر، ط:1، القاهرة، 1394هـ/1974م، ص : 276.

[3] مجلة الأصالة- وزارة التعليم والشؤون الدينية، مطبعة البعث، العدد:26، قسنطينة، الجزائر ،1395هـ/1975م، ص : 344.

ولعل لظى عاطفته، دعاه إلى استثمار هذه المندوحة، أضف إلى ذلك إيمانه بأن الصبر هو المنفذ الوحيد، لتجاوز محنة رزيئته في ولديه؛ وقد دلنا على خلاف سابقيه من الشعراء، على أن هذه النزعة ذات طابع نفسي وذاتي، بدليل أنه يصور حالته النفسية التي تعلقت بالمأتم على الخصوص حيث قال:

يا نار قلبي وأين قلبي أو يا كبدي لو يكون لي كبد

...

يا بائع الموت مشتريه أنا فالصبر ما لا يطاق والجلد[1]

وعبر إبراهيم ابن أبي بكر الأنصاري (-690هـ) عن نزعة أخلاقية اجتماعية ، استوفى من خلالها إشارة إلى شيمتي الغدر والعزة؛ وقد دل عن ذمه للغدر، بدليل أن هذا السلوك الإنساني، يؤدي بمقترفه إلى إيقاع الضر تجاه أخيه الإنسان؛ والشاعر إذ ذاك يهدف إلى تنبيه أناس عصره إلى مخاطر هذا الفعل، كما يسعى في الوقت نفسه إلى حث مجتمعه على تجنب هذا الأمر، و تحفيزه على طلب العزة ، بيد أن الذي يتجنب الغدر في نظره، يعد عزيزا: وهو يقول :

الغدر في الناس شيمة سلفت قد طال بين الورى تصرفها

...

بل ربما أعقب الجزاء بها مضرة عنك عز مصرفها[2]

وساهم محمد الشاطبي (-699هـ) في التعبير عن نزعة أخلاقية من خلال شعر ، ضمنه إشارة إلى الفقر والطمع والغنى والقناعة والعلم والفجور والتقوى ، فكانت لهذه الصفات أبعاد

---

[1] فوات الوفيات. ج:2، ص :429.

[2] الإحاطة في أخبار غرناطة. مج:1، ص :366.

مختلفة، قد وفق الشاعر إليها، وكشفها بدليل ذيوعها في المجتمع آنذاك، كما حاول تكييفها مع النمط الإسلامي، فربطها بالدين، مما يدل على نزعته الاجتماعية والدينية معا، حيث أشار إلى القناعة وإلى إيمانه بما كتبه الله له؛ إضافة إلى أن القانع في نظره عزيز عند الله من دون ذليل طامع في الدنيا وزخرفها أو منحرف عما كتبه الله له؛ وقد استعمل الشاعر كلمة الفقر استعمالا مجازيا، لأنه لم يعن بها معناها الأول، بل اختارها ليفيد بها معنى الفقر في العلم والإيمان لا الفقر في المال وزينة الدنيا، وكذلك أفاد بالغنى غنى العلم والإيمان لا غنى المال أو الغنى المعروف في الوسط الاجتماعي ؛ وحيث ذكر الشاعر العلم ، فلدوره في تجلية الحقائق والكشف عن سر الإنسان في تقواه وفي هدايته أو في فجوره وفي فسقه ؛ قال :

جعلت كتاب ربي لي بضاعة　　فكيف أخاف فقرا أو إضاعه

وأعددت القناعة رأس مالي　　وهل شيء أعز من القناعه

...

ما ميلق العالم إلا الذي　　يخبره العالم في الميلق

ذاك الذي يكشف أسرارهم　　فيفضح الفاجر والمتق[1]

هكذا يتضح أن محمد الشاطبي قد سخر شعره وسيلة وغاية للأخلاق، حيث أكد أن السبيل الوحيد لاستقامة الإنسان وصلاحه، لا يتم إلا بعد مداومة النفس الإنسانية أبد الدهر سماعها وصية كل من أحب أن يخلص إليها بالنصيحة؛ وهذا ما يدل على أن الشاعر استهدف من الشيم الخلقية استقامة النفس، واعتدالها، وصلاحها، وتمسكها بالصدق وبالإخلاص؛ قال :

[1] عنوان الدراية. ص : 104.

سلكت أبا عبد الإله وابن صالح سبيلا فكم يفضي قويما ؟ لصالح

يرجح عند الله ميزانكم غدا إذا لم يكن ميزان قوم براجح

فإياه فاسلك طول عمرك واستمع وصاية محب مخلص لك ناصح[1]

من بين الشعراء الذين اتصلوا عن كثب بالمجتمع، وأسهموا بقسط وافر في التعبير عن نزعة أخلاقية ذات طابع اجتماعي وديني ابن خميس الحجر التلمساني (-708هـ)؛ فقد استوفى في شعره العديد من النوازع الأخلاقية، بيد أنه أشار على سبيل المثال إلى الشر عند الإنسان في عصره، وربط بين هذه النزعة وبين مرحلة الصبا ودلنا على أن الإنسان بإمكانه أن يتجنب هذا السلوك السيئ، بعد انقضاء مرحلة صباه، وإمّا أن يأمل في عودته؛ بل ليست هذه الذميمة في نظر الشاعر سوى طريقا لهلاك صاحبها؛ قال :

تأمل بعد الترك رجع ودادها وشر ودادها ما تود الترائك

حلا لك منها ما خلا لك في الصبا فأنت على حلوائه متهالك[2]

ولعل من معاني الشر التي أومأ إليها ابن خميس، أن من بين أفراد المجتمع من كان سفاكا للدماء بغير حق، ومنهم من كان ضحية لهذا العدوان؛ ففي تعبيره عن هذا الأمر يصور حاله؛ فيقول:

إذا لم يرد غير سفك دمي فحل وبل له ما استباح[3]

وغاية ابن خميس في قوله السابق، الدعوة إلى إقامة الحق والعدل والمساواة بين الناس كافة ومما يدل كذلك على نزعة الشاعر الأخلاقية، هو إشارة إلى فضيلة السماحة وكمانيها السامية،

---

[1] عنوان الدراية. ص: 105.
[2] الإحاطة في أخبار غرناطة. مج :2، ص : 562.
[3] م.ن. مج.ن، ص : 531.

من عفو وصفح، كما يظهر تعلقه بهذه الخصلة إزاء معاملة كل من استحقها من الناس الملاح في نظره، كما يقصد إلى اعتزازه بسمو أخلاقه؛ فيقول :

وما زلت سمحا بنفسي كذا متى ما رأيت الوجوه الملاحا[1]

ويرى ابن خميس أن من يريد ستر نفسه وصونها والعلو بهمتها، فما عليه أن يذلها بقبول المن، بل فليتغاض عن صاحب المن؛ وهذا ما يدل على أن الشاعر يفضل إباء الضيم والعزة والأنفة التي ورثها عن أجداده، كما يعمل الشاعر في قوله على إرساء هذا العماد الأخلاقي، فيقول ناصحا مجتمعه :

ولا تبذل وجها لصاحب نعمة فما مثل بذل الوجه للستر هاتك

تجشّم ما استطعت واحذر أذاهم ولا تلقهم إلا وهرك شائك[2]

ويرى ابن خميس أن الحسد ألصق بالنفس الإنسانية إلا ما كانت نفسه على عصمة من الله؛ ولعل غايته في ذلك أن الحسد موجود بوجود الإنسان وأن التخلص من هذه الصفة، لا يتم في نظره إلا بحب الإنسان لأخيه الإنسان انطلاقا من المبادئ والتعاليم التي فرضها الله تعالى على عباده، ونص عليها القرآن الكريم والحديث الشريف؛ حيث يقول :

فكل على ما أنعم الله حاسد وكل إذا لم يعصم الله حاسك[3]

وحيث امتثل ابن خميس في نزعنه الأخلاقية إلى وصف حال مجتمعه، فإنه سعى دوما إلى إصلاحه وتوجيهه؛ ولعل من الصور التي تدل على منزعه هذا هو إشارته إلى العمل الصالح، والذي لا بد أن يتريث صاحبه لأدائه، فيهتدي قبل إنجازه إلى الروية وإلى الرزانة والحكمة،

---

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة. مج :2 ، ص : 544.
[2] م ن. مج. ن،: ص : 562.
[3] م.ن. مج.ن، ص.ن.

لكي يخطو خطوات لا تعترضها شوائك ولا عوائق؛ والشاعر في ذلك يحفز الإنسان على مراجعة نفسه، وعلى أن يرغب لها ما يصلح لها ولمجتمعها من أعمال صالحة، تدل على امتلاك الإنسان شخصية العامل المتخلق والمتقن لعمله؛ قال :

تثبت إذا ما قمت تعمل خطوة فإن بقاع الأرض طرا شوائك[1]

ولا يغفل ابن خميس في نزعته الخلقية الاجتماعية عن ذكر شيمة خلقية لها من القيمة والقيم ما لا يحصى، ولها من الشرف والرفعة ما للإنسان من شرف ورفعة عند الله الذي يكرم كل إنسان ضحى من أجل وطنه فأكن له كل الحب؛ وإشارة الشاعر إلى هذه الفضيلة إنما لرغبة منه في نشرها و تحبيبها لمجتمع عصره؛ فيقول في معرض الوصف مبديا حنينه وحبه لوطنه الأم تلمسان ورابطا في الآن ذاته بين توقه إلى بلده وصبره على فراقه :

سل الريح إن لم تسعد السفن أنواء فعند صباها من تلمسان أنباء

...

وأني لأصبر للصبا كلما سرت والنجم مهما كان للنجم إصباء

ويا داري الأولى بدرب حلاوة وقد جث عيث في بلاها وإرداء

أحن لها ما أطت النيب حولها وما عاقها عن مورد الماء إظماء[2]

ويؤكد ابن خميس نزعته الأخلاقية الاجتماعية في بيتين من الحكمة، فيشير دون تصريح إلى اتصاف الإنسان بطباع خلقية جمة، تتبدل طول عمره، بمثل ما شاب مفرقه، ووهن جسمه ضعفا بعد هرمه؛ وهو إذ ذاك يفرق بين طريقين : طريق القوة التي لا تعني معناها الأصل، إنما

---

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة. مج :2 ، ص: 562.

[2] المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس- عبد الوهاب بن منصور. مطبعة ابن خلدون، تلمسان ، 1965 م ، ص : 86.

هي قوة مرتبطة بالسلوك الأخلاقي والطباع الحسنة عند الإنسان الذي يحس بهذه القوة حتى وإن ضعف ونال منه الهرم؛ كما يشير ابن خميس إلى طريق الضعف الذي ينجم في نظره عن الطباع السيئة،، حيث يترك صاحبه ضعيفا حتى وإن شب ولم يدركه الهرم بعد؛ وفي معنى الشاعر ما يدل على أن القوي قوي بأخلاقه الطيبة، وأن الضعيف ضعيف بركركتها، مهما كانت سن الإنسان.

ولعل غاية الشاعر في ما ذهب إليه هو الإصلاح الاجتماعي والمداومة عليه ما انفك الإنسان حيا يرزق؛ قال :

وفي كل سن لابن آدم وإن تطل سنوه طباع جمة وعوائد

وإلا فمالي بعد ما شاب مفرقي وأعجز رأي عجز من الركارك[1]

وليوسف الثغري (لم يؤرخ لميلاده ووفاته) شعر ينزع هذا المنزع حيث إن قريضه يدل على أنه كان يجنح إلى موضوعنا هذا؛ فقد عرض إلى الصدق والكرم والعدل والإحسان والحلم والعز الشجاعة والبأس والعفو والعفة. واستثمر هذه الخلال في معرض المدح، وكانت الدوافع التي دعته إلى هذا التوظيف راجعة إلى تدينه واعترافه بفضائل المتخلقين، إضافة إلى أنه اكتسب خبرة اجتماعية وسياسية في حياته المهنية بخاصة. فهو كاتب في البلاط الزياني، وهو الذي آمن بأن الحياة السعيدة هي حياة الأخلاق الفاضلة؛ حيث قال في مدحه للرسول (ص) مؤكدا على صدقه (ص) :

لك يا رسول الله كل دلالة لم تبق من شك لمن يتوهم[2]

---

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة. مج :2، ص : 562.

[2] نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان – محمد بن عبد الله التنسي. تحقيق : محمود بوعياد. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1405هـ/1985م، ص :173.

وإذ أشاد الشاعر بصدق رسول الله، فإن صدقه (ص) أفضل من صدق كل مخلوق، وهو أكرم الأكرمين لكل الأنبياء والرسل. ولولا كرمه وعطاؤه في نظر الشاعر، لما تجلت الأكارم والمكارم، ولما تأسس الإحسان الحق بين الناس، بدليل أنه (ص) أتقى الناس وأهداهم؛ والشاعر في وصفه لخلال الرسول، إنما قصد إلى الاعتبار بأخلاقه التي لا تساومها أخلاق البشر قطُّ، إضافة إلى أن هذه الأخلاق هي التي يجب على مجتمعه أن يقتدي بها ويتحلى بها على الخصوص؛ قال :

تلك المراتب لم يكن لينالها إلا الهاشمي الأكرم

يا خاتم الرسل الكرام وخير من يبدأ به الذكر الجميل ويختم

...

لولا عطاياه الجزيلة لم تكن تعلى الأكارم والمكارم تعلم

...

جود وإحسان وصدق في الهدى حسن وعقد في التقى مستحكم

الحلم أوسع والجناب مؤمل والعز أمنع والسجية أكرم[1]

وحيث أشاد الثغري بعزة الرسول (ص) وكرمه وحلمه وجاهه، فإنه أشاد بعدله الذي فاق في نظره كل عدل أقامه أي إنسان، بل إنه يؤسس الشاعر عدل رسول الله على محاربته للظلم أي إقامة المساواة والإخاء والمحبة وغيرها من المعاني التي أومأ إليها الشاعر وهو يعرض إلى خلة العدل في معرض المدح، حيث يقول :

يحمي الأنام بعدله وحسامه فالظلم يقصي والمعاند يقصم

[1] نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان. ص : 174-176

...

أعطيت بالعدل الخلافة حقها فملوكها في حقها لك سلموا[1]

وإذا كان الثغري قد ربط في إشاراته السابقة الفضائل الخلقية بذات الرسول (ص) وهو عنصر من المجتمع الإنساني، فإنه في شعر آخر يعبر لنا عن نزعة أخلاقية ارتبطت بذاته، لكونه افتخر بنفسه مشيرا إلى شهامته وما يقابلها من معان، كالشجاعة والإقدام والبأس و الاعتماد على النفس؛ يقول :

ما عابد الرحمن أن تسأل به إلا هزبر في الكريهة ضيغم

شهم يعل البيض من مهج العدى والسمر في ثغر النحور يحكم[2]

ويرى ابن هدية القرشي (-736هـ) أن الرياسة تفضي إلى اقتراف ذنوب، لم يصرح بها هذا الشاعر، لأنه اكتفى بأن أوحى إلى أنها لا تمت بالأخلاق الفاضلة، والدليل على ذلك أنه أشار إلى شيمة الرحمة وأومأ إلى معان كالرفق والصفح؛ فأخذ يبدي توده لله، كي يرحمه ويعفو عنه ما ارتكبه من ذنوب طيلة حياته؛ ولعل هذا اعتراف من الشاعر الذي يأمل في الرحمة من وجهة، والنأي عن الخلق الدنيء من وجهة أخرى؛ ويقول مشيرا إلى هذه الصفة في معرض الزهد :

إلا هي مضت للعمر سبعون حجة منيت بها مما جنته الدواهيا

وعبدك قد أمسى رهين ذنوبه فجد لي برحمي منك تعم الدواهيا[3]

---

[1] نظم الدر والعقيان. ص : 175.

[2] م.ن. ص : 177.

[3] بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- يحي بن خلدون. ج : 1، الجزائر، 1332هـ/1913م، ص :52.

ولم يختلف أبو عبد الله الشوذي (-737هـ) عن بقية الشعراء في عصره في التعبير عن نزعة أخلاقية لها علاقة بذاته وبمجتمعه، إضافة إلى أنه تأثر في ذلك بالإسلام من وجهة، وبالحياة من وجهة ثانية؛ وقد أشار في شعره في غرض الزهد إلى الفطنة والبلادة، وهو ينظر إذ ذاك إلى أن من معاني الحلم الفطنة والتؤدة والحكمة، فليس الحليم في رأيه ببليد، لأن الحليم يصغي إلى الحق من حيث هو حق، وواجب عليه الإيمان به. أما البليد فلا علاقة له بالحكمة ولا بالتؤدة ولا بالفطنة ولا بالحلم، لأنه غير مؤمن بالحق لا أكثر؛ وقد دعا الشاعر إلى التعبير عن هذه النزعة الأخلاقية عقيدته السمحة بحيث يصرح بإيمانه بالله؛ فيقول :

إذا نطق الوجود أصاخ قوم بآذان إلى نطق الوجود

وذاك النطق ليس به انعجام ولكن دق عن فهم البليد

فكن فطنا تنادي من قريب ولا تك من ينادي من بعيد[1]

ولقد تأثر محمد المقري (-759هـ) كسابقيه بفعل الدين الإسلامي، وبأثر الحياة من حوله. فاستثمر شيما خلقية لغير ذاتها، بل ربطها بذاته، مصورا إزاء ذلك نزعة أخلاقية ذاتية؛ ومن بين الخلال التي صورها في شعره تجنب الهوى والصبر والصدق. أما السوى فهو الهوى، وهو الذي نبذه الشاعر، فأبدى طهارته ونقاوته معبرا عن بعده عن مساوئ الهوى قائلا :

رفضت السوى وهو الطهارة عندما تلفعت في مرط الهوى وهو زينتي[2]

أما قضية الصبر، فإن الشاعر ربطها بحالته النفسية، ولكن دون أن يصرح بمراده إثر توظيفه لهذه الخلة، بل اكتفى بتأكيده على قوة صبره مهما كان حاله؛ فقال :

---

[1] البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان- محمد بن مريم التلمساني. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص : 69-70.

[2] الإحاطة في أخبار غرناطة. مج : 2، ص : 204.

وإني على صبري كما أنت واصف وحالي أقوى القائمين بحجة[1]

وإذ عرض المقري إلى الصبر، فإنه في موضع آخر يدلنا على علاقة هذه الخلة بقضية عاشها الشاعر بمثل ما عاشها بعض من مجتمع عصره، وهي الفقر، فيشير إذ ذاك إلى صبره على هذه الحالة، مفضلا مذاقها، ومبينا بأنه اصطفاها بديلا للغنى، لأنه أكد شكره على وضعيته الاجتماعية آملا في نيل التوبة في الآن ذاته؛ وهذا ما يوحي بأن الشاعر مؤمن أيما إيمان بالقناعة في الحياة من وجهة، والإيمان بالقضاء والقدر من وجهة ثانية، أضف إلى ذلك أنه قد نَمَّ عن نزعة أخلاقية، تهدف إلى حث المرء على التحلي بالصبر والقناعة بما أوتي في حياته؛ قال :

وفقري مع الصبر اصطفيت على الغنى مع الشكر إذ لم يحظ فيه متوبتي[2]

إن نزعة المقري هذه، قد دفعت به إلى تأسيس خصلة الصدق على معيار ديني صرف. فهو يربط تحليه بالصدق بسلوك ديني هو التوبة، ويبين إثر ذلك بأن حياته وخبرته وتجربته مهما طالت، واكتسب من ورائهم خلالا، فإن افضل خلة عقدها لنفسه، وقضى بأن تكون هي الأنسب إنما هي صدق التوبة، إذ قال :

ولو لم يحدد عهد عقد خلة قضيت ولم يقض المنى صدق توبة[3]

وإذ تميز العربي والمسلم عموما بالأنفة وحبه للسؤدد والتعالي، وتفانيه في بلوغ هذه المرامي، فإن محمدا المقري كغيره من شعراء هذا العصر، قد جهدت نفسه، لإدراك هذه الخلال

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة. مج:2 ، ص : 205.
[2] م.ن. مج.ن، ص : 148.
[3] م.ن. مج.ن، ص : 209.

المحمودة، وهو يشير إلى العز والرفعة، ليدل على علاقتهما بشخصه موضحا رغبته الملحة في الظفر بهما مهما كان حاله ومقامه في هذه الحياة؛ فيقول :

وبدلت بالتلوين تمكين عزة ومن كل أحوال قامات رفعة[1]

وما يمكن أن نذكره في آخر هذا الفصل هو أن الجزائر قد أمت شعراء آخرين إليها[2]، اهتموا بالقضية الخلقية التي حضرت حضورا قويا في الشعر الزياني خلال العصر الأول؛ وهي كما أشرت إليه آنفا مرتبطة بمختلف الأغراض الشعرية وبذات الشاعر وبمجتمعه وبشتى القضايا الإنسانية والظروف التي دعت إليها؛ وإن شعر النزعة الأخلاقية في هذه الفترة يعد صورة مثالية تعكس مدى تطورها في الشعر العربي، أضف إلى ذلك أن هذه القضية تدل على تبدل معاني النوازع الخلقية وتغير وظائفها وغاياتها؛ كما يدل هذا التبدل والتغير على اختلاف بين طبيعة النزعة الأخلاقية للشعر العربي وطبيعتها في الشعر الذي قيل في العصر الزياني الثاني بخاصة، وذلك ما سأتعرض له في الفصل الآتي.

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة. مج:2 ، ص : 148.

[2] منهم الشاب الظريف التلمساني ومحمد بن عبد الملك المراكشي وأبو زكرياء يحي بن عصام وأبو عبد الله محمد بن البناء وأحمد بن يحي بن أبي حجلة.

الفصل الثاني

طبيعة النزعة الأخلاقية للشعر الزياني في العصر الثاني

(749-962هـ)

قبل أن ألج في دراسة طبيعة النزعة الأخلاقية للشعر الزياني في العصر الثاني لابد من الوقوف عند مفهوم الأخلاق كي تتضح النزعة التي نروم توضيحها و استيفاء الحديث عنها .

- الأخلاق لغة :

إن المصدر اللّغوي لكلمة الأخلاق هو الفعل خلق ؛ جاء في لسان العرب أنّ « خلق : الله تعالى و تقدّس الخالق و الخلاّق ، و في التنزيل : هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ ، المصوّر[1] ، و فيه : بَلَى وَ هُوَ الخلاّق العليم[2] ... و من صفات الله تعالى الخالق و الخلاّق و لا تجوز هذه الصفة بالألف و اللاّم لغير الله عزّ و جلّ ... و الخلق يكون المصدر و يكون المخلوق ... و رجل خليق و مختلق : حسن الخلق .[3]»

و ارتبطت كلمة الأخلاق في معناها اللّغوي بالمصدر الذي هو الخلق ، إذ إنّ الفعل خلق من أمر الخالق البارئ الذي تنزّه به عن مخلوقاته ، فأبدع في تصويره للإنسان، متمّما خلقه للذكر و الأنثى معا و هذا ما يجوّز لنا القول إنّ فاعل الفعل خلق هو الله فحسب ، و المفعول هو الإنسان ، و أما المصدر فهو الخلق أو المخلوق.

- الأخلاق اصطلاحا :

إن التعريف الاصطلاحي لكلمة الأخلاق يظل مرتبطا بمعناها اللّغوي السابق ، لأنّ الإنسان يجبل على أخلاق معينة أو أنه يكتسبها اكتسابا ، إضافة إلى أنّ أخلاقه توصف بمثل ما يوصف به من حسن الخلق و قبحه ؛ فيقال : فلان حسن الأخلاق و حسن الخلق ، و يقال: فلان قبيح الأخلاق و قبيح الخلق ؛ أو يقال : فلان قبيح الخلق ، و لكنه حسن

---

[1] مختصر تفسير الإمام الطبري.دار الشروق ، 1402 هـ/ 1972 م ، سورة : الحشر ، الآية : 24 ، ص : 628.
[2] م ن، سورة : يس ، الآية : 81 ، ص : 503.
[3] لسان العرب – ابن منظور الإفريقي المصري. مج : 10 ، دار صادر و بيروت للطباعة و النشر ، بيروت 1388 هـ/1968 م، ص : 85

الأخلاق ، أو يقال فلان حسن الخلق ، و لكنه قبيح الأخلاق ؛ و الأخلاق جمع للخلق و للخلق ، بتسكين اللام و بضمّها ؛ قال تعالى : « وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» [1] و الجمع أخلاق لايكسر على غير ذلك. و في الحديث : «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ ، وَ إِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَ الصَّلَاةِ.»[2]

و « و الخلق و الخلق السجية . . . الخلق بضم اللام و سكونها : هو الدّين و الطبع و السّجية.»[3]

يتضّح من خلال هذا التعريف أنّ الأخلاق على صلة بعامل خارجي يدركه الإنسان إزاء احتكاكه بالمجتمع على الخصوص ؛ أو أن الأخلاق على علاقة بعامل ذاتي يختص به الإنسان ، من مثل الفطرة أو السجية ؛ كما أنّ للأخلاق صورتين : إحداهما صورة باطنة و أخراها صورة ظاهرة للأولى من حيث أوصاف النفس الإنسانية و معانيها أي إنّ من الأخلاق ما هو خفي لا تدركه إلاّ الذات ،

و منها ما هو ظاهر ، يعد تعبيرا لما أضمرته الذات من أخلاق ، كقولنا : رجل يكن الحب لرجل آخر أو أنه يضمر له الحقد ؛ أما إضماره لهذا الإحساس ، فلأنه من الأخلاق الباطنة. و أما إذا عبّر عن حبّه مثلا ، فأكرم السائل و أنصف المظلوم و ذاد عن الضعيف ، فلأنّ هذه السلوكات عبارة عن أوصاف خلقية و معان من معاني الأخلاق الظاهرة ، بدليل أنها صورة لما كنّه الرجل من حبّ تجاه من أكرمه و أنصفه و حماه. و بعد وقوف قليلا إزاء التعريف للأخلاق ؛ أنتقل إلى أثر ذلك في الشعر الزياني و الأسئلة التي تطرح نفسها هي : ما

---

[1] مختصر تفسير الإمام الطبري. سورة : القلم ، الآية : 4 ، ص : 649.
[2] مختصر سنن الترميذي. شرحه : الدكتور : مصطفى ديب البغا. اليمامة للطباعة و النشر و التوزيع ، ط : 1 ، دمشق ، سوريا، 1418 هـ / 1997 م ، باب البر و الصلة ، رقم الحديث : 2004 ، ص : 274.
[3] لسان العرب. مج : 10 ، ص : 86.

هي مختلف النوازع الخلقية التي أثارها الشعراء في هذه الفترة ؟ و ماهي الكيفية التي وردت بها في أشعارهم ؟ أو ما هي علاقتها بالشاعر ، بالنظر إلى البواعث التي دفعت به إلى استثمارها ؟ ثم ما علاقتها إن كان لتوظيفها صلة بالمجتمع ؟ بل ما الغاية من توظيفها . في نظر الشاعر الذي صرح بها حينا و أومأ إليها حينا آخر ؟

- طبيعة النزعة الأخلاقية للشعر الزياني في العصر الثاني

تراوحت طبيعة هذه النزعة بين نزعة ذاتية و اجتماعية و سياسية و دينية ، بل ارتبطت بمختلف الدوافع و الأغراض و الغايات التي انبنت عليها ؛ كما تأسست مختلف النوازع الخلقية على مبادئ الدين الإسلامي و تعاليمه ، مما يحول بين الفصم بين نزعة خلقية و أخرى، لأنّ تعامل الشاعر مع القضية الخلقية لم يخرج عن مقاييس الدين و قواعده المسنونة ؛ و لذلك فقد تفاوت الأخذ بالقيم الأخلاقية من شاعر إلى آخر ، و هذا إما لكون النوازع الخلقية وردت في إشارات ضمنية و إما لأن الشاعر اعتمدها حينا لذاتها ، أضف إلى ذلك أن من الخلال ما تكرر استعماله عند أغلب الشعراء ، و من الشيم لم نعثر عل استعمالها في شعر شاعر آخر ؛ فعلى هذا النسق أكتفي في دراسة طبيعة النزعة الأخلاقية بالتعرض إلى أشهر شعراء هذا العصر، و مركزا في ذلك على نموذج شعري فأكثر ، لكل شاعر احتججت بشعره ، بالنظر دائما إلى عنايته بالقضية الخلقية. علما أن هناك شعراء كثيرون عنوا بالنزعة الخلقية خلال العصر الزياني الثاني و في مقدمتهم الشاعر لسان الدين بن الخطيب (– 776 هـ) الذي اتصل بالبلاط الزياني ، فعقد علاقة صداقة بالملك أبي حمو الثاني ؛ و حدث أن اجتمعت دوافع كثيرة ، دعت الشاعر إلى التعبير عن قيم أخلاقية شتى ؛ و قد

تأثر بسياسة ممدوحه أبي حمو الثاني الذي أقام حكمه على ميزان التقوى من وجهة أخرى ؛ و إن تأثر الشاعر دفع به إلى أن يشير إلى خلال حميدة كالعدل و الحلم و الصدق و الفضل و اللطف. و هي شيم اتصف بها ممدوحه ، بحيث يرى الشاعر أن أبا حمو قد أعاد عهد موسى في الحكم بين الناس بالعدل مما أدى به أن يكون إلى عادلا و حليما في الآن ذاته ؛ قال لسان الدين في ربطه بين شيمتي العدل و الحلم :

و جددت فيها دولة موسوية سجيتها عدل و شيمتها حلم[1]

و يجزم لسان الدين في اعتبار أبي حمو ظافرا بالصدق متى عانده الخصم في هذه الخلة؛ قال :

لموسى أبي حمو بن يوسف آية و برهان صدق لا يعاند خصم[2]

و ينظر الشاعر إلى ممدوحه على أنه ذو فضل و لعل من فضله لطف سياسته. و هذا ما يدل على أن لسان الدين ربط شيمة اللطف بالسياسة ، نظرا لما تحمله هذه الخلة من معاني الرحمة و الصفح و العدل و المساواة التي يفرض على الحاكم المسلم العمل بها في مجال تسييس الحكم ، و التدبير في شؤون الرعية على الخصوص ؛ قال :

و ما شئت من فضل و لطف سياسة يطيع بها العاصي و تستنزل العصم[3]

أما إشارة لسان الدين إلى أن سياسة الحكم تقوم البتة على الأخلاق الفاضلة ، فلأن هذه الأخلاق مؤسسة على التقوى و العلم ؛ و يمكن القول إن الشاعر ربط نزعته الأخلاقية في الشعر بالسياسة من منطلق ديني ؛ فقال :

---

[1] بغية الروّاد . ج : 2 ، ص : 299.
[2] م ن . ج ن ، ص ن.
[3] م ن . ج ن ، ص ن.

و قام على التقوى بناء سياسة يمهد من أساس أركانها علم[1]

و لقد أسهم إلى جانب لسان الدين في التعبير عن نزعة أخلاقية ذات طابع سياسي، الشاعر يحي بن خلدون (– 780 هـ) ، حيث دعت الصلة بين يحيى و الملك أبي حمو إلى إشادة الشاعر بالملك، معبرا إزاء ذلك عن نزعة أخلاقية ، عرض من خلالها إلى خلال حميدة ، كالعلا أو المجد، و البأس و الحلم ؛ و قد أشار الشاعر إليها لغير ذاتها بمثل ما أشار إليها لسان الدين ، و هذا لأن الشاعرين كانا بصدد المدح ؛ بحيث وصف يحي ممدوحه بالعلا ، فربط هذه المندوحة بما انتهى إليه أبو حمو من نهي و أمر.

و لعل في تعبير الشاعر عن هذا السلوك ما يدل على أن ممدوحه قد بلغ منزلة عالية و ذلك لأنه كان ينهى عن الأفعال السيئة و يأمر بالاحتكام إلى التشبث بالأفعال الحسنة كما أوضح الشاعر بأنّ للمدوح حق الافتخار بتعاليه ، لأنه اتصف بالبأس و بالحلم معا ؛ و هذا ما ينم عن أن الشاعر أحب في الحاكم المسلم صفات ، تجعله يتحلى بالأخلاق الفاضلة ؛ قال :

و يا مليكا له العلا خلقا ففي العلا ما نهى و ما أمرا

. . .

ما الفخر إلاّ الذي أثبت به بأسا و حلما و نائلا خمرا[2]

و من الشعراء الذين عبروا عن هذه النزعة ، مادحين الملوك بخاصة ، نجد الشاعر علي بن محمد الخزاعي (– 789 هـ) ، و هو الذي اتصل بالسلطان المريني في تلمسان أبي فارس بن أبي عنان الذي حكم المنطقة مدة ، و خاصة في الفترات التي تناحر فيها الزيانيون مع

---

[1] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب – أحمد المقري. ج:9 ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، (د.ت) ، ص:335.

[2] بغية الرواد. ج:2 ، ص: 124.

المرينيين من أجل الظفر بعاصمة المغرب الأوسط تلمسان. أما المهم في ذلك فإن الشاعر علي الخزاعي وصف أبا فارس بالعزم ، و طلب منه الصفح عن فرسه التي كبت به ، مذكرا إياه بحادثة الرسول (ص) ، و الذي كبت به فرسه ، و تسببت له في خدش جنبه و على الرغم من ذلك فإنه لم يعاقبها و لم يلمها بل عفا عنها ، لأن من شيمه (ص) الصفح و العفو عن الإنس العقلاء ، فكيف لا يصفح عن كائن حي لا عقل له ، بل له أهمية في كونه يشاركه السراء و الضراء . و يتضح أن الشاعر فيما ذهب إليه ، قد تجاوز بأخلاقه الفاضلة حدود الإنسانية ، بل لقد أضاف قاعدة أخلاقية ، لا بد للمرء أن يتصف بها ، و هي أن الإنسان المتخلق حقا ، هو الإنسان الذي ينظر برفق إلى كل من يستحق الرفق و العطف تجاه الكائنات و المخلوقات التي لا عقل لها و لا تمييز بمثل ما للإنسان من عقل و وعي ؛ قال :

مولاي لا ذنب للشقراء إن عثرت و من يلمها -لعمري- فهو ظالمها

. . .

و لم تزل عادة الفرسان مذركبوا تكبو الجياد و لم تنب عزائمها

و في رسول الله إسوتنا أعلى النبيئين مقدارا و خاتمها

كبابة فرس أبقى بسقطته في جنبه خدشة تبدو مراسمها[1]

و لم يختلف محمد بن أبي جمعة التلاسي (عاش بعد سنة 760 هـ) عن سابقيه من الشعراء ، لكونه اتصل بالبلاط الزياني و امتدح أصحابه و رثاهم ؛ إذ من الصور الشعرية التي نسجها محمد التلاسي معبرا من خلالها عن نزعة أخلاقية ، لها علاقة بالسياسة تارة ، و لها أركان قائمة على الدين تارة أخرى ، صورة رثى فيها السلطان أبا يعقوب والد أبي حمو

[1] تاريخ الجزائر العام. ج:2 ، ص:102-103.

الثاني ؛ حيث أبدى تأثره بوفاة ممدوحه ، فإنه لم يتأخر عن تعداد مناقبه الأخلاقية من كرم و مجد ؛ علما فإن الشاعر استعمل الخصلتين عرضا ، و دل على حيازة أبي يعقوب لمكارم الأخلاق ، بدليل أن الشاعر شبه جود أبا يعقوب بالبحر الذي يعين الإنسان على الحياة في المعمورة ، إضافة إلى أن اتصافه بهذه الخلة ، دفع بالشاعر إلى تفضيل ممدوحه عن باقي الكرماء الذين لم يناظروه في هذه المندوحة ؛ بل لقد نظر الشاعر إلى أن من ندى الفقيد عنايته بالأرامل التي بكته ، و إحسانه إلى اليتامى. و قد بدت طبيعة النزعة الأخلاقية للشاعر في قوله :

ردوا الذي حاز المكارم و العلا بحر الندى يحي به المعمور

بكت الأرامل و اليتامى بعده إذ ماله بين الكرام نظير[1]

و نلاحظ في شعر هذا العصر أن هناك من الشعراء من كان لهم اهتمام كبير بمدح الملوك ، و هذا للتعبير عن نزعتهم الأخلاقية من وجهة ، و ربط هذه النزعة بتعداد المناقب الأخلاقية للملوك الممدوحين من وجهة أخرى. و هي خاصية تبين أن الحاكم المسلم في تلك الفترة ، كان يتمتع بمنزلة سامية ، اكتسبها بفضل سمو أخلاقه و نبل مقاصده و شرف غاياته من أي سلوك أخلاقي يقوم به في حياته ، و بخاصة في أداء الدور المنوط به بصفته حاكما للأمة و للبلد معا ؛ و لذلك فقد شارك حسن ابن إبراهيم بن سبع (كان حيا بعد سنة 775 هـ) إلى جانب غيره من شعراء عصره ، في التعبير عن هذه النزعة ، بحيث مدح أبا حمو الثاني ، مشيرا إلى أخلاقه الفاضلة من جود و حمايته للغير ، و إقامته العدل بينهم ؛ و لم يختلف حسن بن سبع عن سابقيه من الشعراء ، حيث إنه أشار إلى هذه الخلال لغير ذاتها ،

[1] بغية الرواد. ج:1 ، ص: 111.

كما أنه أكد أنها لصيقة بالممدوح ، و هي في نظره دليل قاطع على سمو خلق الممدوح وحسن سيرته ؛ قال :

هو البحر جودا و الكواكب رفعة و شمس الضحى نفعا فمن ذا يفاخر

...

ومدت ظلال الأمن فالكل مأمن و سحت عهاد الخير و الجود غامر

...

و ماليَ نظم الشعر لولا علاقة و من لي به لولا العلا و المآثر

...

فكن منصفي منهم و جدلي بالمنى فلا شك مولى العبد حام و ناصر

و دم و ابقى و انعم و اسم و سد و جد تضيء بك العليا و تزهى المنابر[1]

و لقد وسمت طبيعة النزعة الأخلاقية للشعر الزياني في العصر الثاني ، بالربط بين سياسة الحاكم

و أخلاقه المحمودة ، كما بينا ذلك من قبل ؛ و دون أن أجزم في هذا الأمر ، فقد كانت هذه الخاصية سنة تداولها أغلب الشعراء الذين اتصلوا بالملوك و بالأمراء ، بيد إن الشاعر أبا الفضل بن محمد العصامي (كان حيا سنة 776 هـ) مدح هو الآخر أبا حمو الثاني ، فأشاد بأخلاقه الحسنة وأشار إذ ذاك إلى شيمة العزة ، و لكن الشاعر ههنا ، تراه يربط الخلة بفضيلة حث الإسلام عليها حثا ، و هي الجهاد في سبيل الله و في سبيل الإسلام و المسلمين ، بل في سبيل الوطن و التضحية لأجله ؛ و هذا ما يدل على أن الشاعر ربط عزة ممدوحه

[1] بغية الرواد. ج:2 ، ص:284.

بإحياء الممدوح لسنة القدامى من المسلمين، و لعل تلك السنة هي الفتح الإسلامي ؛ و إذ تطلب الفتح العمل بما سنه الإسلام ، فإنه تطلب إلى جانب ذلك الشجاعة و البأس والإقدام و الجرأة ، و غيرها من الصفات التي أومأ إليها الشاعر في مدحه لأبي حمو الذي تفانى في الأخذ بهذه السنة و بمعانيها السامية ، بحيث أقدم عن جرأة و بسالة في فتحه لمدينة تدلس و هذا لكي يجدد بها عهد الإسلام و الملمين من وجهة و ليدل على عزته التي وصفه بها العصامي من و جهة ثانية ؛ فقال أبو الفضل في تهنئة أبي حمو بالفتح ، ذاكرا عزه :

وافت بفتح تدلس لك مالكي فاهنأ بملك بالفتوح موزور

فتدلس تقضي بفتح بجاية فانهض بعزك أو بسعدك تضفر

...

و بقيت في العز المكين مؤيدا مهما سرت نفحات روض مزهر[1]

و إن من خصائص طبيعة النزعة الأخلاقية في هذا العصر هو أن العناية بها لم تعد مقتصرة على الشعراء الذين عرضنا لشعرهم آنفا ، بل تعدى الاهتمام بها هذا الصنف إلى غيرهم من الملوك الذين شاركوا مشاركة فعالة ، في التعبير عن هذه القضية في مختلف الصور الشعرية التي تنم عن تعلقهم بالأخلاق الفاضلة ، كما تنم عن ربكهم بين الخصال الحميدة و أعمالهم السياسية ، إضافة إلى أنهم أسسوا نزعتهم الأخلاقية في الشعر على معيار لا غنى عنه و هو الإسلام.

و لقد أسهم الملك أبو حمو الثاني (-791 هـ) في تصوير نزعة أخلاقية ، تدل على فخره بأخلاقه ، كما تدل على أثر الخلق في سياسته أي إن نزعته الأخلاقية الذاتية كانت على

[1] بغية الرواد. ج : 2 ، ص: 315-316

علاقة بفعل الظروف السياسية التي احتكم إليها ؛ و لذالك لا نجازف إن أخذنا الشاعر على بعض الشيم الخلقية ، بخاصة عندما صرح بطبيعة الحكم الذي قام في نظره على الوراثة لا على الشورى ، لأن هذا السلوك يدل على الاستبداد الذي شهدته مملكة بني زيان ، و بخاصة بعد احتكار الساسة للرياسة دون سائر المسلمين ؛ قال أبو حمو الثاني :

سكناها ليالي آمنينا و أياما تسر الناظرينا

بناها جدنا القرم المفدى و كنا نحن بعض الوارثينا

فلما أن جلانا الدهر عنها تركناها لقوم آخرينا[1]

و إن إشادة الشاعر بالوراثة في الحكم ما يفيد تغاضيه عن الإشادة بمبدئ الشورى الذي حث عليه الإسلام ، نظرا لما يحمله هذا الدين و مبدؤه من معاني العدل و المساواة و الإخاء و الذي يمكننا أن نستشفه من نزعة أبي حمو الثاني ، أنه ميز بين طبيعة الحكم في العصر الزياني و الحكم في سابق العهود الإسلامية و بخاصة في عهد الرسول (ص) و عهد الخلفاء الراشدين. و دون الأخذ بالظروف السياسية التي تفرض هذا الحكم من الداخل و من الخارج ، فإن في شعر أبي حمو ما ينم عن تزكيته للبيت الملكي ، و حثه على الأخذ بهذا النظام ، و فرضه على المسلم في هذا العصر ، مما يؤدي إلى إحداث فرق بين الطبقة الحاكمة و المحكومة ؛ و قد صور أبو حمو في موضع آخر من شعره تكالب الملوك على الظفر بتلمسان و غيرها من أمكنة من أرض الجزائر ، ليدل إثر ذلك على بعض المساوئ و المذمات الأخلاقية التي يؤاخذ عليها الحكام المسلمون ، بدليل أنهم يدسون لبعضهم بعضا ، فيوقعون بالمملكات الإسلامية أمام وحدة العدو المتربص بهم.

[1] تاريخ الجزائر العام. ج:1 ، ص:185.

و إن من الصور الشعرية التي تدل على ذلك قول الملك أبي حمو في افتخاره باستعادة الحكم من بني جلدته ، بعد حرب ضروس ، ذهب ضحيتها المسلمون لا غير ؛ قال :

و معها أسود الحرب تطوي بها الفلا يرون المنايا بعض تلك الغنائم[2]

و كان أحرى بالشاعر أن يعبر عن شجاعته و بسالته في الحرب تجاه الذين كادوا للإسلام كيدا ، بدلا من أن يعبر عن هاتين الخصلتين ، مزدريا بأهل الإسلام ؛ و حيث يؤاخذ الشاعر على هذه السلوكات الأخلاقية ، فإن له من محامد الأخلاق ما يشفع بها له ، و ما يرفع من شأوه و ذلك لكونه استمد نزعته الأخلاقية الفاضلة من مبادئ الإسلام و أخلاقه السمحة ؛ فترجم سيرته الخلقية ، مشيدا بعدله في قوله :

و تنصر مظلوما و تمنع ظالما إذا شيك مظلوم بشوكة ظالم[1]

و إن في قول الشاعر ما يدل على أنه كان من أنصار العدل و إقامة المساواة بين الناس ؛ و غايته في ذلك غاية كل حاكم يطمع في رضا الله و رضا رعيته ، كما أنه يقصد إلى نشر هذه الفضيلة في قصره بين أعضاء حاشيته أو في وسط رعيته المحكومة ؛ و لقد ارتبطت نزعة الشاعر الخلقية في محاربته للظلم بمحاربته للبغي و للبغاة ؛ قال :

و جبت الفيافي بلدة بعد بلدة و طوعت فيها كل باغ و باغم[2]

و أثر عن هذه الشخصية السياسية و الشاعرة نظما شعريا ، دعا فيه إلى العفة و الحلم و النبل ، بحيث فرق بين الهوى و الفضيلة ، و رأى في فضيلته كل النأي عن الولع بالحسان

---

[2] بغية الرواد. ج:2 ، ص:30.
[1] م ن. ج ن ، ص:95.
[2] م ن. ج ن ، ص:31.

و الأخذ بمبدئ الجد و الحزم في النضال ، من أجل العزة و الكرامة ، حتى و إن كلفه الأمر اللجوء الدائم إلى الاشتغال بالصوارم و القنا ، بدلا من الاشتغال بالهوى ، قال :

فما يسوى العلياء همنا جلالة إذا هام قوم بالحسان النواعم

بروق المشرفيات و القنا أحب إلينا من بروق المباسم

و أحسن من قد الفتاة و خدها قدود العوالي أو خدود الصوارم[1]

و لقد عمد أبو حمو في موضع آخر في شعره إلى الإشادة بخلة الصبر التي تحلى بها هو جنده في ساحات القتال و الحروب ؛ و قد حرص على التشبث بهذه الخصلة ، نظرا إلى إيمانه بالظفر و تحصيل النصر ، و بخاصة أنه يعلم قيمة الصبر و النتيجة التي يجنيها الصبور كلما رابط و اتقى الله على الخصوص ؛ و لعل الشاعر في إشارته إلى هذه الخلة ما يدل على أنه ربط الشيمة الخلقية بالحرب تارة و بالجوع تارة أخرى و بالكربة تارة ثالثة ؛ بل لقد ربطهم جميعهم بمدأي الطهارة من الهوى ، و التقوى بالله ، ليكسف بذلك عن غايته في الدعوة إلى مكارم الأخلاق التي ارتبطت بنهجه كحاكم سياسي ؛ يقول :

و كم ليلة بتنا على الجدب و الطوى نراقب نجم الصبح في ليل عاتم[2]

. . .

صبور على البلوى طهور من الهوى قريب من التقوى بعيد المآثم [3]

---

[1] بغية الرواد. ج : 2 ، ص:93.
[2] م ن. ج ن ، ص:32.
[3] م ن. ج ن ، ص:93.

و لم يكن صبر الشاعر صبرا على الجوع و البلوى و الحرب فقط ، إنما قرن صبره بالحب و بالنافلة. و لا أقول إنه أسرف حين شبه هذه الخلة بالنافلة ، لأنه حاول تبيان فضلها و قيمتها العظيمة ، و التي ضاهت في نظره ركنا من أركان الدين ألا و هو الصلاة لما لها من قيمة و أجر عظيم عند الله ؛ و هذا ما يدل على أن صبر الشاعر كان نتيجة لإيمانه بمعاني الدين و بتعاليمه التي طالما دعت الإنسان إلى التحلي بهذه المندوحة ؛ و ليست غاية الشاعر في إشارته هذه بمعزل عن تعبيره عن وجده و توقه إلى تلمسان ؛ إذ يقول عن الصبر في غرض الغزل :

الحب من شيمتي و الوجد معرفتي و الصبر نافلتي يا آل زيان[1]

و يمكن أن نستشف من قول الشاعر نزعة أخلاقية ذات صبغ دينية على الرغم أنه كان سلطانا ذا شخصية سياسية ؛ و هذا ما يبرر ما ذهبنا إليه من أن سياسته كانت تقوم على الأخلاق الدينية الإسلامية ، بحيث أشار الشاعر إلى نوازع خلقية كالعزم و إباء الضيم و الحزم و المجد ، و أكد إذ ذاك أن الهوى وزيغه لا يؤثران إلا على الإنسان الضعيف العزيمة و الإرادة ، كما يرى الشاعر أن الفتى إذا انقاد إلى هواه ، فإنه ممن ذل و ضعف فهو لايواجه الصعوبات عن حزم ؛ و لذلك فإن الذي يفوز بالمجد و العز و الكرامة في نظره هو الذي أعز نفسه ، و آثر العزم و الحزم في آن واحد ؛ قال :

فإن الهوى لا يستفز ذوي النهى و لا يستبي إلا ضعيف العزائم

و كل فتى أعطى الغرام قياده و بات على ضيم ليس بحازم

و ما فاز بالعلياء سوى كل ماجد مشمر ساق العز ماضي العزائم[2]

---

[1] أبو حمو موسى الزياني – حياته و آثاره – حاجيات عبد الحميد. الجزائر ، 1974 م ، ص:214.

[2] بغية الرواد. ج:2 ، ص:93.

و يستوقفنا شاعر من الملوك الذين اهتموا بالقضية الأخلاقية فصوروها في أشعارهم تصويرا تباين تباين الشيم المستعملة ؛ و الشاعر هو السلطان أبو زيان الثاني (- 805 هـ) ، و هو الذي اهتدى إلى التعبير عن قضايا خلقية عديدة قد سبق السابقون إليها ، بحيث مدح الملك أبو زيان ملك مصر برقوق ، فأشاد بمناقبه الأخلاقية ، مشيرا إلى شيمة الرفق دون أن يصرح بالذي يرفق به ، إنما قصد إلى تنبيه ممدوحه و غيره من الملوك المسلمين و هذا بالتأكيد على ضرورة التحلي بهذه الخلة و الإيحاء بأهميتها في حياة الإنسان ؛ قال :

رفقا بمن حملته فوق ظهورها فالحسن فوق ظهورها محمول[1]

و يستطرد أبو زيان في شعره إلى أن يعرض إلى نوازع أخلاقية أخرى في بيت شعري ، يذكر خلاله إباء الضيم ، فيربط هذه الخلة بخلال أخرى كالعزة و الكرامة و الحرية من دون الذل و البخل و العبودية ؛ و الشاعر إذ ذاك يقصد إلى أن الأبي هو الحر و العزيز ، و أن السفه هو الذي يتبع هواه ؛ و قد استهدف الشاعر في تلميحه هذا إلى ترفع الحاكم السياسي عن الخنوع لإدارة الهوى ، و نبذه لكل استغلال قد يخضع له الحاكم الذي يتملق لغيره ، فلا يخدم إلا العدو المستغل لسلطنته و لوطنه و لأهله و لدينه ؛ و الشاعر فيما يعنيه إنما يهدف إلى ترسيخ الأخلاق الفاضلة ، و تثبيتها في نفوس الحكام المسلمين في تلك الفترة ، و بخاصة أنهم ورثوها عن الحكام السابقين ؛ قال :

تأبى النفوس الضيم إلا في الهوى فالحر عبد و العزيز ذليل[2]

---

[1] كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاشرهم من ذوي السلطان الأكبر – عبد الرحمن بن خلدون. ج:7 ، دار الكتاب اللبناني ، 1968 م ، ص:138.

[2] كتاب العبر. ج: 7 ، ص:138.

و حيث أراد أبو زيان الاقتداء بصفات الرسول (ص) ، فإنه أسرف في تشبيه ممدوحه بالرسول ؛ قال :

و عن المليك أبي سعيد فلتنب فلكم له نحو الرسول رسول[1]

و يذكر أبو زيان صفات أخلاقية ، كالإخاء و المودة و الإخلاص التي يتبادلها الملوك عن قرب و عن بعد . و يرى الشاعر في ود ممدوحه ذيلا يتبعه أينما حل و في أي الشؤون ساس ؛ و يماثل إذ ذاك بين وده و ود برقوق و ود بعض الصحابة الأجلاء ، كزيد و ثابت و خالد ، و يشبه الود بالحبل المتواصل بينه و بين الحاكم دون بتر له ، بل و عن صدق عاطفة ، غاية صاحبها الاعتزاز بالفضائل و التدليل على أنها موروثة عن القدماء وراثة الإسلام عنه ، و وراثة ما يحمله هذا الدين من تعاليم تحث على الود و الإخلاص و الإخاء بين الناس ؛ و قد تميز الملك المسلم في هذا العصر بهذه الشمة ، مما دفع به إلى التأثير في رعاياه الذين يميلون إلى التحلي بها ، إقرارا بالفضيلة و حسن الخلق الذي تدعو إليه العقيدة الإسلامية.

و في هذا الموضع يقول أبو زيان معبرا عن نزعته الأخلاقية ذات الطابع السياسي ، و التي تقوم على الدين أولا و آخرا :

إن كان رسم الود منك مذيلا بالبر و هو بذيله موصول

فنظيره عندي و ليس يضيره بمعارض وهم و لا تخييل

ود زيد و ثابت شهدا به و لخالد بخلوده تذييل

. . .

دام الوداد على البعاد موصلا بين القلوب و حبله موصول[2]

---

[1] كتاب العبر . ج: 7 ، ص:226.
[2] م.ن. ج.ن، ص :263-266.

و تبدو نزعة أبي زيان الأخلاقية ذاتية بحكم افتخاره بوده ، إضافة إلى أنه ربط هذه الخصلة بالبر و الصدق ، فشبهها مجازا بالحبل الذي لا ينفصم ، لكي يدل على حركيتها التي تمثلها الاستمرارية في التحلي بها على مر الزمن و المكان.

و كان للدين الإسلامي أثره في نفسية إبن زاغو المغراوي (-845 هـ) ، بمثل ما كان للحياة الاجتماعية أثرها في شعره. و لذلك كانت نزعته الأخلاقية نتيجة للدوافع الدينية و الاجتماعية معا أي إنه ربط إشاراته إلى الأخلاق الفاضلة بالإسلام و بالمجتمع ؛ و هو إزاء ذلك سلك مسلك السابقين ممن امتهنوا التعليم فنصحوا المجتمع و أرشدوه إلى الخير ، بحيث إن من الشيم الخلقية التي دعا إليها الشاعر و حث مجتمعه على التحلي بها خلتي السلم و الحذر و هذا من كل من يفضي بالإنسان إلى الأذى و السوء ؛ و قد أشار الشاعر إلى قضية السلم في غرض الزهد ، إذ لا يتحقق السلم في نظره إلى إذا اهتم الإنسان بما يخلص به إلى الفلاح يوم القيامة بخاصة. و إن من بين ما يهتم به الخلق شيمة السلم دون العنف ، و مجانبة ذوي السوء ، و السعي إلى الأخذ بكل ما يجنى وراءه كل خير ؛ و الشاعر إذ ذاك ينم عن حكمته و تجربته في الحياة التي جعلته يفرق بين أهل السلم الخيرين و أهل العنف الضالين ، بحيث إن المسالم في نظره قنوع و أما الظالم فطامع و أن من معاني السلم القناعة و من معاني العنف الطمع و الضلالة و الندامة ؛ قال :

فهذا الخلق سالمهم و دعهم ... فخلطتهم تقود إلى الندامة

و لا تعني بشيء غير شيء ... يقود إلى خلاصك في القيامة[1]

[1] البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان. ص : 41.

و إذ كان إبن زاغو شاعرا حكيما ، كثيرا ما اتصل بالمجتمع ، فإن تجربته في الحياة هي التي جعلته يتصف بالسلم ، بحيث دفعت به هذه النزعة إلى أن يتأدب و يتخلق بالخلق المحمود ، إذ أشار إلى خلقه هذا ، و الذي أكسبه الزمان إياه مع أن الزمان ليست له علاقة بالأخلاق و ليست له قدرة على تأديب الإنسان ، إنما من باب الاستعارة أراد الشاعر أن يبين قوة نزعته الخلقية في الحياة من وجهة و أن يكشف عن حكمته و تجربته اللتين دفعتا به إلى نشر محاسن الأخلاق في رسالته الشعرية ؛ فقال مفتخرا بتأدبه :

و أدبني الزمان فما أبالي هجرت فلا أزار و لا أزور[1]

و إن ما يمكن أن نستشفه من نزعة الشاعر الأخلاقية هو الاهتمام جملة بالقضية الخلقة و ربطها بالإسلام الذي يعد المولد الوحيد للأخلاق الفاضلة. و هكذا فإن طبيعة نزعته لا تعدو في الآن ذاته أن تكون دينية و اجتماعية.

و شراك ابراهيم التازي (-866 هـ) شعراء العصر في التعبير عن نزعة أخلاقية ، ارتبطت بذاته حينا كما ارتبطت بمجتمعه حينا آخر. اللهم إنه في تصوير نزعته هذه دعته الضرورة الدينية و ظروف حياته في وسط اجتماعي متباين النوازع الخلقية ؛ و قد انتهج الشاعر منهج السابقين من الشعراء ، إثر حثه على التحلى بالأخلاق الفاضلة ، و هذا باستعمال التعليم و النصح و الإرشاد و توجيه المجتمع نحو الأفضل ؛ قال :

إن شئت عيشا نعيما و اتباع هدى فاسمع مقال و كن بالله معتضدا[2]

و يدلنا هذا البيت على خلق الشاعر ذي الطابع الديني الاجتماعي ، بيد أنه يسعى إلى تربية إنسان عصره التي لا تتم في نظره إلا بعد أن ينتهج الإنسان طريق الهداية و الاعتصام بالله ،

---

[1] البستان. ص:43.
[2] م.ن. ص:60.

و ذلك لأن تشبث الإنسان بهذين المبدأين هو تشبث بالأخلاق الحسنة ؛ و قد ربط الشاعر طريق الهداية و التقوى بشيم أخلاقية فاضلة ، لأنه في إشارته إلى الظلم يدعو إلى العدل و الجدية في العمل و الإحسان إلى السائل و مساعدة المقهور المكسور ؛ و هذا ما يدل على أن غاية الشاعر في ذكره لهذه الشيم ، هادفة إلى نبذ الظلم و الخمول و البخل و القهر ؛ قال :

و تنصر مظلوما و ترفع خاملا و تكسب معدوما و تجبر ذا كسر[1]

ثم يذم الشاعر الدنيا على أساس أنها عوار في نظره و أن من العوار الفحشاء و الفحشاء ليست من خلقه و فضائله ، لأن من خصاله الحميدة عفته التي تبدو جلية في قوله :

و عد عن الرباب و عن سعاد و زينب و المعازف و العقار

فما الدنيا و زخرفها بشيء و ما أيامها إلا عوار[2]

و يربط التازي تخلق الإنسان بالدين أو بالأحرى إن المتأدب في نظره هو الذي يصحح توبته إلى الله ما دام يؤدي واجبه بالتأدب أمام ملكه المخلوق أي إنه يطيع الله طاعة المخلوق لخالقه و يتأدب معه أكثر من أن يتأدب مع حاكمه الذي يطيعه طاعة محكوم لحاكم من جنسه ؛ و في حث الشاعر على التحلي بالخلق الحسن و التأدب مع الله ، قال :

فزر و تأدب بعد تصحيح توبة تأدب مملوك مع الملك الحر[3]

و نلاحظ في شعر التازي أن نزعته الأخلاقية اكتسبت طابعا اجتماعيا قوامه الدين الإسلامي الذي يدعو إلى التقوى بالله من وجهة ، إضافة إلى أن الشاعر يعد ممن حرصوا على نشر الأخلاق الإسلامية و الإلحاح على غرسها في نفوس البشر من وجهة ثانية.

---

[1] البستان. ص:62.
[2] م.ن. ص:61.
[3] م ن. ص:63.

و سلك الشاعر أحمد بن عيسى البرنسي (-899 هـ) مسلك سابقيه من الشعراء من حيث تعامله مع القضية الأخلاقية ، بيد أنه أشاد بالأخلاق الحميدة و لكن دون أن يختصها لذاتها في شعره ، بل أشار إليها في غير غرض و لكل غرض غاياته و أهدافه. و على الرغم من الكيفية التي عرض الشاعر بوساطتها إلى النوازع الخلقية ، فإنه صور في شعره نزعة أخلاقية ذاتية تهدف إلى الإشادة بما اكتسبته شخصيته من خلال فاضلة من مثل العز والرفعة و العدل ؛ و هي شيم أشار الشاعر إليها في معرض الفخر بالنفس ، إضافة إلى أنه دل بها على أنه ركب مجلى العز و السؤدد كلما أقدم عن شجاعة إلى ساحة الوغى ، مريدا بذلك دك كل ذي جبروت و كل ذي طغيان ؛ و هو يأمل إزاء ذلك استئصال الظلم باستئصال الظالم ، و انتزاع الحق لصاحبه من الظالم المتغطرس. و إن الشاعر في أدائه لهذه المهمات الأخلاقية ، يسعى إلى تحقيق غاياته النبيلة ، و هي إفشاء العزة و الكرامة بين الناس و محاولته إقامة العدل و المساواة ؛ قال :

و قلدت سيف العز في مجمع الوغى و صرت أمام الوقت صاحب رفعة

...

و أقهر جبارا و أدحض ظالما و أنصر مظلوما بسلطان سطوتي[1]

و لا نلاحظ في تصوير الشاعر لنزعته الأخلاقية ما يدل على علاقتها بالدين مثلما لاحظناه في شعر غيره من الشعراء. و لا نجزم في الحكم على شعره بكامله ، و إنما انطلاقا من البيتين السابقين تسنى لي القول إنه ربط صفاته بسلطان سطوته و لا نعلم أيها سلطانا اكتسب و أيتها سطوة قادته إلى التحلي بفضائل الأخلاق التي نزع إليها في شعره ؛ و يمكن القول إن

[1] البستان. ص:48.

نزعته الأخلاقية مرتبطة بالرمز و بالإيحاء ، بدليل أن الشاعر قد صنف في كتاب البستان الذي عرض صاحبه من خلاله إلى الأولياء ذوي الكرامات و يظل الحكم على طبيعة هذه النزعة في الشعر قابلا للصواب حينا و للتحوير و للإضفاء حينا آخر .

و يعد أبو عبد الله محمد (توفي في سنة من سنوات المئة التاسعة للهجرة) سلطانا و شاعرا من شعراء بني زيان ، قد ظفرنا في شعره بنزعة أخلاقية صور فيها خلالا حميدة كالود و الصفح و الإخاء ، و لم يخرج عن منوال شعراء عصره عندما عرض إلى الأخلاق لغير ذاتها . فقد ذكرها في معرض الغزل ، و شبه الوداد بالمداد و ربطه بالصفح ، كأني به في هذا التشبيه و هذا الربط يدل على قوة إحساسه بوداد محبوبته ، و الذي يعادل في نظره المداد الذي يترك أثره حين وقوعه على الشيء ، فهو لا يزول إلا بزوال إحساس الشاعر بالود بخاصة ؛ و قد ساوى الشاعر بين الوداد و الصفح الذي من معانيه العفو و السماح ، و لعل من معاني الود في نظر الشاعر الإخاء الذي من معانيه الإحساس بالإنسان و بوحدته أي الإيمان بالإنسانية لا غير ؛ و أنه لا فرق بين إنسان و آخر سوى أنه أخ له و من طينة واحدة خلقا ؛ و حيث أوحى الشاعر بهذه المعاني السامية فإن ما يمكن قوله عن نزعته الأخلاقية هو أنه اهتم بالأخلاق ، فقرن بينها كما لاحظنا آنفا، أضف إلى ذلك أنه أشار إليها في تغزله بالحبيبة ، و هو غرض ليس بجدي ، قد يكون إما دافعا للتعبير عن أخلاقه و إما أن تكون الظروف و العوامل المحيطة به في سلطنته مؤثرة في شخصيته و في سلوكاته الأخلاقية ؛ يقول في إشارته إلى الود و الصفح و الإخاء معا :

ضاء المداد من الوداد بصفحها حتى اضمحل عبوسه المجبول

. . .

و تأكدت بهدية ودية هي الإخاء المرتضي تكميل[1]

ويمكن القول إن نزعة الشاعر نزعة أخلاقية ذاتية إضافة إلى أنني لم أقف على أثر للدين في شعره المحتج به ؛ و هذا ما يدفع بي إلى اعتبار نزعته نزعة ذات طابع سياسي ، بحكم أنه كان سلطانا في عصره.

و من بين الشعراء الذين عبروا عن نزعة أخلاقية في الشعر الزياني محمد التواتي (-924 هـ) الذي أشار إلى شيم خلقية عديدة كالشفقة و الرحمة و الشدة أو الغلظة ، فربط صفة الرحمة أو الشفقة بغير الإنسان بدليل أنه دعا إلى الدفاع عن مدينة وهران هادفا إلى الذود عن معاقل الإسلام و المسلمين إذ ، إن المسلمين في دفاعهم عن وطنهم رحماء به و مشفقون عليه من العدو الغاصب الذي اتصف في نظر الشاعر بالشدة و بالقساوة إزاء اغتصابه لوهران.

و لذلك يأمل الشاعر أن يكون أهل البلد أشداء على العدو و أعزاء بذودهم عن دينهم و عن وطنهم و كرامتهم و شرفهم ، و هي سمات شرفهم الإسلام بها و كرمهم الله بها ، حيث ثنى محمد التواتي على المسلمين لبسالتهم ، لأنهم عرفوا بفتكهم للعدو و بنكلهم لكل غاز لأرض الإسلام و بخاصة في عهدة بني زيان ؛ و الشاعر في تعبيره عن نزعته الأخلاقية المحبذة للتضحية من أجل الوطن يشير إلى الكفر و إلى خطره على المسلمين ، و على دينهم الذي يدعو أهله إلى نبذ الكفر و الشرك معا و مجانبة أخلاق المشركين على الخصوص.

و لقد تزامن قول التواتي مع احتلال الإسبان لموانئ وهران ، إذ في شعره دعوة صريحة إلى الحكام و الرعايا حتى يفيقوا مما انتابهم من ذهول و ضعف و تخاذل و تقاعص أدى بالمسلمين إلى أفول نجمهم رويدا رويدا و خاصة بعد سقوط مختلف الإمارات الإسلامية في المشرق

[1] البستان. ص: 226.

و في الأندلس ، ثم إن الشاعر في دلالته على صدقه و إخلاصه و حبه لوطنه إنما يدل على علاقة نزعته الأخلاقية بالمجتمع و بالساسة و تأسيس هذه النزعة على الدين الإسلامي بخاصة ؛ فيقول :

يا أهل وهران أنظروا نظرة شفقة لبلدة من قبل أن تتردتى[1]

...

فلا تهملوا أمر الأعادي فإنهم بحال اجتماع و اتفاق و شدة

...

فإن لهم بالطعن و الضرب خبرة و كم فتكوا بالكفر أكبر فتكة[2]

و ما يمكن استنتاجه في هذا الفصل هو أن طبيعة النزعة الأخلاقية ارتبطت قبل كل شيء بعصر له مزايا و خصائص معينة بحيث يعد عقدا زمنيا عاشته الجزائر و عاصمتها تلمسان و شعراؤها الفحول ؛ و لذلك فإن ما يقال عن طبيعة القضية الخلقية للشعر الزياني هو علاقتها بالأحداث التي واكبتها و صلتها بالبيئة و بالإنسان ، و من ثمة كان لهذه العناصر أثر في وسم النزعة الأخلاقية بطابع متميز عن الطابع الذي عرفت به في الشعر العربي عموما .

و إن مما تميزت به هذه النزعة هو تفرعها إلى نوازع خلقية عديدة استخدمها الشعراء أغلبها و خاصة تلك التي تطلبتها الظروف المحيطة بالشاعر مصورها ، أو تطلبتها أوصاف الشاعر الخلقية و معانيه و أغراضه و البواعث التي كان لجميعها أثر في إعطاء صورة خاصة عن طبيعة النزعة الأخلاقية للشعر الزياني ؛ و إذا ارتبطت النزعة الأخلاقية بالعصر و بالإنسان

---

[1] الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني – أحمد بن سحنون. المهدي البوعبدلي. منشورات وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، 1973 م ، ص:15

[2] م ن.ص ن.

و بيئته ، فإن استثمارها كان نتيجة لتضافر عوامل خارجية سواء أكانت اجتماعية أم سياسية أم دينية أكسبت النزعة الأخلاقية طابعا اجتماعيا أو سياسيا أو دينيا كما أكسبتها في المقابل طابعا ذاتيا بفعل العوامل الداخلية أو النفسية التي اختص الشاعر به كالفطرة و التجربة و الحكمة في الحياة على الخصوص. و هذا ما يؤكد التنوع في الوظائف و الغايات التي تميزت بها طبيعة النزعة الخلقية ، فكانت الغاية الذاتية جلية في فخر الشاعر بأخلاقه على سبيل المثال كما تجلت الغاية الاجتماعية في نصح الشاعر للمجتمع و توجيهه و حثه على التحلي بالخلق الحسن مثلا ؛ و لقد تأسست طبيعة النزعة الأخلاقية عموما على أساس ديني محض ، فكاد هذا الأساس يكون دافعا لإثارة مختلف النوازع الخلقية و غاية لذلك في الآن ذاته أي إن الشعراء حرصوا على نشر مكارم الأخلاق إما تحليا بالأخلاق الإسلامية و إما رغبة في نشرها بين الناس و الحث على الاتصاف بها .

كما استوفى شعراء العصر الزياني القضية الخلقية مشيدين بمكارم الأخلاق أيما إشادة على الرغم أنهم أشاروا إلى الشيم الخلقية في أغراض شعرية مختلفة و أنهم ربطوا هذه الخلال إما بذواتهم و إما ربطوها بغيرهم من أناس عصرهم ؛ و قد صوروا مختلف الشيم في صور شعرية متباينة تدل على أنهم وظفوها لغير ذاتها كما تدل على أنهم أشاروا إليها في إشارات ضمنية أوحت بها معاني القول الشعري.

و اهتدى بعض الشعراء إلى استعمال خصلة خلقية على الأقل كما اهتدى بعضهم الآخر إلى ذكر أكثر من خصلة ، فربطوا إثر ذلك بين الخلة و غيرها من الخلال و شبهوها بمختلف التشبيهات. و على أية حال فإنهم استهدفوا في ذلك نشر محاسن الأخلاق و نبذ المساوئ منها . و مما يستقطب النظر في هذا الفصل هو أن هؤلاء الشعراء اختلفوا من حيث مراتبهم

في الحياة إذ منهم الفقهاء البسطاء و منهم الساسة ذووا البلاط ؛ و لذلك فإن اهتمامهم بالأخلاق كان على علاقة بنظراتهم الفكرية في الحياة ، حيث نجد الشعراء الفقهاء يؤسسون الأخلاق على الدين لا أكثر و هذا لم يمنع الشعراء السياسيين من إقامة نظرتهم إلى الأخلاق على مبادئ الدين ، لأنهم مسلمون لا غير ، بل لقد ربطوا سياسة الحكم بالأخلاق الفاضلة.

و أشير في نهاية هذا الفصل أن هناك العديد من الشعراء الذين لم أحتج بشعرهم الأخلاقي مع أنهم ساهموا في التعبير عن نزعة أخلاقية للشعر الزياني في العصر الثاني بخاصة[1] ، وذلك تجنبا للإطناب من وجهة و لأن طبيعة شعرهم لا تختلف عما استشهدت به من نماذج أخرى.

[1] منهم : محمد بن مرزوق بن الخطيب و محمد بن صالح شقرون و محمد بن علي المرسي و محمد بن محمد المشدالي و محمد بن أحمد العقباني و محمد بن يوسف السنوسي و محمد بن عبد الله التنسي و محمد بن عبد الرحمن الحوضي و أحمد بن يحي الونشريسي و محمد بن جابر الواد آشي.

الفصل الثالث

المقومات الفنية

لشعر النزعة الأخلاقية

في العصر الزياني

اختلفت الدراسات الفنية للشعر العربي عموما، نظرا لتباين الجوانب التي اقتضتها أية دراسة. ولذلك سأركز على بعض المقومات الفنية الأساسية التي بني عليها شعر النزعة الأخلاقية في الشعر الزياني، دون الغوص في الشعر العربي بعامة ودون أن تعتمد هذه الدراسة على الجرد الكامل لكل مقوم تميز به هذا الشعر على الخصوص. وسأقف في هذه الدراسة على محورين : أحدهما المعجم الشعري والآخر دراسة خصائص الصورة الشعرية ومصادرها.

أولا : المعجم الشعري :

كثرت المفاهيم عن الدراسات المعجمية إضافة إلى تنوع طرق هذه الدراسات؛ ولذلك لن نخوض في حصر مختلف المفاهيم، بل نكتفي في دراستنا للمعجم الشعري للنزعة الأخلاقية في العصر الزياني بأن نركز على أرجح المفاهيم التي تكاد تتفق في مجموعها على أن الدراسة المعجمية تبدأ بالكلمة المفردة والتي هو مؤلفة من حروف محدودة، لها طبيعة معينة ولها وظيفة في بناء الكلام وأفكاره ومعانيه والغايات من ذلك.

أ- المفردات

إن دراسة المفردات على علاقة بالتعبير عن مختلف النزعات الخلقية سواء تعلق الأمر بالنزعة الأخلاقية الاجتماعية أو السياسية أو الطبيعية أو الدينية أو الفلسفية.

- المعجم الاجتماعي.

نقصد بهذا المعجم تلك الألفاظ التي وظفها الشاعر الزياني في شعره معبرا بوساطتها عن أخلاق مجتمعه، كما دل بها على نزعته الخلقية الاجتماعية بخاصة.

وقد نستدل في هذا المجال بالشاعر ابن خميس (-708هـ) الذي كاد ديوانه الشعري يتميز بالنزعة الاجتماعية، نظرا لاهتمامه البالغ بأخلاق شريحته الاجتماعية المعاصرة اهتماما يستقطب إليه النظر.

ولتوضيح هذا الأمر أكثر، فقد انتقى ألفاظا في معرض نصحه لمجتمعه من مثل أدب وقرت وجانب وأذى وأرغم والأنفة؛ والشاعر إذ ذاك يشير إلى معان أخلاقية لها أهمية بالجة في حياة المجتمع الإنساني، حيث لولا تجنب المرء لأنذل الناس في نظره لما تحققت سلامته، ولما كان الإنسان حليما إذ لم يعف ولم يصفح عمن تعرض له بسوء؛ ثم يرى الشاعر أن المرء الذي يجهد نفسه في تربية طفله إنما يجتهد في الاعتماد عليه مستقبلا في السراء والضراء، وبخاصة إذا ما زرع في نفسية الطفل شيما خلقية مثل الأنفة وحب الإنسان والتجرد من الحسد، وهي قيم خلقية انتقى ابن خميس لأجلها المفردات الموقعة أثرا في النفس الإنسانية والمعبرة في آن واحد عن الغاية النبيلة للشاعر الذي يبدي نبذه لما تفشى من أخلاق فاسدة في مجتمع عصره، ورغبته في نشر محاسن الأخلاق، إذ قال :

جانب جميع الناس تسلم منهم إن السلامة في مجانبة الورى
وإذا رأيت من امرئ يوما أذى لا تجزه أبدا بما منه ترى

...

من أدب ابنا له صغيرا قرت به عينه كبيرا
وأرغم الأنف من عدو يحسد نعماءه كثيرا[1]

[1] تاريخ الأدب الجزائري – محمد الطمار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د.ت)، ص : 136.

وبما أن هذه المعاجم تجمع بينها رابطة قوية تجعلها تنضوي كلها تحت المعجم الشعري؛ فإن المحور الموالي له في نظرنا اتصال وثيق بسائر المحاور التي تؤلف في مجملها هذا المعجم.

- المعجم السياسي.

هو معجم ثري كسابقه ولكننا نقتصر في التدليل عليه بالنزعة الخلقية ذات الطابع السياسي التي مثلها لسان الدين بن الخطيب (-776هـ) في مدحه للملك أبي حمو الثاني مصور في الآن ذاته نزعة هذا الملك الخلقية والسياسية بالنظر إلى أن ابن الخطيب قد ربط سياسة أبي حمو في الحكم بالعفة والعدل والحلم والصدق والتقوى والعلم؛ وهي ألفاظ توحي بالطابع الجدي للموضوع الخلقي الذي تناوله الشعراء في العصر الزياني بعامة، كما توحي بمرامي هادفة إلى تحفيز الحاكم المسلم على الالتزام بالأخلاق الفاضلة إزاء تسييسه في حكم البلد والتدبير في شؤون رعيته على الخصوص.

وفي هذه الحالة يلتقي المعجم السياسي مع المعجم الاجتماعي، إذ قال لسان الدين :

وحدّثْ ~~وجدت~~ فيها دولة موسوية سجيتها عدل وشيمتها حلم

...

لموسى أبي حمو بن يوسف آية وبرهان صدق لا يعاند خصم

وما شئت من فضل ولطف سياسته يطيح بها العاصي وتستنزل العصم

...

وقام على التقوى بناء سياسته يمهد من أساس أركانها علم[1]

[1] بغية الرواد، ج: 2، ص : 299.

نلاحظ أن الشاعر قد كرر لفظة السياسة في قصيدته مرتين وأكثر، وهذا ليؤكد نزعته الأخلاقية الذاتية التي استهدفت تحبيذ سياسة ممدوحه القائمة على القيم الخلقية، وهي سياسة لا يتأخر عن تحبيذها حتى المجتمع ذاته.

وقد استغرق المعجم الشعري للنزعة الأخلاقية معجما للطبيعة في شتى أصنافها وأشكالها، وكان لهذا المعجم صلة بنزعة الشاعر الخلقية تارة، وصلة بالنزعة الأخلاقية الاجتماعية والسياسية كذلك؛ وهذا ما سنوضحه في العنصر الآتي.

- المعجم الطبيعي.

من المؤكد أن شعر النزعة الأخلاقية غني معجمه بالطبيعة التي ارتبطت بالإنسان كيف كان مستواه في الحياة.

ويتجلى هذا المنزع الأخلاقي في حنين الشعراء الزيانيين إلى البقاع المقدسة مثلا، و توقانهم إلى لقاء الحبيب المصطفى (ص) والتبرك به وبأصحابه التابعين والأولياء الصالحين.

وإن من الصور الشعرية التي تدل على ذلك تلك المولديات التي احتفى بها الشعراء في مناسبات كثيرة، وهم يعددون فيها المناقب الأخلاقية للرسول (ص)، كما يذكرون إزاءها معالم من الصور الطبيعية والصور المصنوعة، فيربطون حينئذ بين النزعة الأخلاقية وبين الطبيعة لتزكية أفكارهم ومعانيهم وغاياتهم الخلقية؛ وقد عبر يوسف القيسي الكاتب والسياسي في البلاط الزياني المتوفى أوائل القرن التاسع الهجري عن منزعه الخلقي إثر تغزله بحبه للرسول (ص) في مولدية من مولديات التي ذكر فيها صورا طبيعية حيث منها الصامتة كالبرق ومنها السائلة كالوادي ومنها الجامدة كالأبرقين ورامة ورند الحجاز وهي أماكن مختلفة؛ وعن ذلك يقول :

يهفو لبرق الأبرقين تعللا والقلب منه دائم خفقانه

...

أترى أرى وادي العقيق ورامة ويلوح رند الحجاز وبانه[1]

- المعجم الفلسفي.

لما ارتبط المعجم الفلسفي بالإنسان، فإنه في أي حال من الأحوال مرتبط بالمعجم الطبيعي والسياسي و الاجتماعي على السواء؛ وهذا بالنظر دائما إلى علاقة الأخلاق بالإنسان، إضافة إلى اشتراك الناس في صفات خلقية واختلافهم في صفاتهم في صفات أخرى.

ويمكنني أن أشير في هذا المجال وعلى سبيل التأكيد إلى قول أحمد الغبريني الذي يدل على أن الشعر الزياني وهو جزء من الأدب العربي، قد تأثر أعلامه بالفلسفة اليونانية، حيث يقول :"وقد أثرت فلسفة أفلاطون في الفكر الإسلامي والأدب الإسلامي تأثيرا كبيرا[2]

ويدعم رأينا في أن شعراء الدولة الزيانية قد استخدموا من المفردات ما يوحي بفلسفتها وفلسفة أصحابها الذين أوغلوا في الأفكار والمعاني والغايات منها؛ تلك القصة التي يرويها لنا ابن مريم الميلتي عن النزاع الفلسفي بين عبد الكريم المغيلي (-909هـ) وجلال الدين السيوطي فيما يخص قضية إثبات المنطق اليوناني وعدم إثباته؛ وهو منطق مرفوض من لدن السيوطي، ومقبول من المغيلي شريطة أنه منطق يقوم على شيم خلقية منها الحق؛ وفي ذلك يقول :

خذ الحق من كفور ولا تقم دليلا على شخص بمذهب مثله

عرفناهم بالحق لا العكس فاستبن به لا بهم إذ هم هداة لأجله[1]

[1] بغية الرواد، ج : 2، ص : 44.

~~عنوان الرواية ص : 99.~~

[2] البستان . ص : 255.

ويتضح من البيتين اعتراف الشاعر بالمنطق اليوناني[1] وحثه على الإقتداء بما فيه من حق وصدق في إقامة هذا الحق بين الأشخاص، والدليل على فلسفة الشاعر كلمات من مثل تقم ودليلا ومذهب، إذ لا مناص للمسلم في نظره من إقامة الحق إلا أن ينطلق من مذهبه الإسلامي، وأما إن انطلق من مذهب كفور فلأنه يأخذ بما في مذهبه من حق وصدق وعدل دون الاقتداء بكفور لذاته ما دام كفور لا يتفق مع المسلم في عقيدته.

وللإشارة فإن المعجم الشعري للنزعة الأخلاقية سواء أكان فلسفيا أو طبيعيا أو سياسيا أو اجتماعيا، فهو معجم قد تأسس جملة على معجم ديني عنوانه الإسلام؛ ولذلك نحاول شرح هذه الخاصية المعجمية من خلال الدراسة الموالية.

- المعجم الديني.

لقد زخر الشعر الزياني بألفاظ كثيرة تدل عن أن الشعراء قد ضمنوا شعرهم معجما دينيا يحث الإنسان على الاتصاف بالأخلاق الحميدة وتجنب الفاسد منها؛ وهذا هو المراد بالمعجم الديني إلى حد قريب. ومن أدلة ذلك الإيمان بالله وعلاقة هذا الإيمان بالخلق الحسن، كالتحلي بالقوة، وتأسيس المعنيين الخلقيين الإيمان والقوة على التقوى أي أن الشعراء الذين حبذوا القوة إنما فضلوا الخلق الكريم كمنفذ لإدراك إيمان قوي بالله؛ وقد عبر عن هذه الغاية ابن خميس (-708هـ) في صورة شعرية يمدح من خلالها لسان الدين ابن الخطيب؛ وهذا ما يدل من ناحية أخرى على أن الشاعر قد مزج بين المعجم الديني الذي استهدف المعاني الخلقية التي أشرنا إليها قبل قليل وبين المعجم السياسي الذي يدل على أن السياسي وقائد

---

1 للتأكد من صحة القصة عد إلى كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان في الصفحة المذكورة سابقا.

المعارك الحربية ابن الخطيب قد اتصف بخلال حميدة من جود وشجاعة قامتا على المعنى الديني الذي هو التقوى ، إذ يقول ابن خميس في معنى ذلك ذاكرا مفردات كالتقى والجود :

جمع الفصاحة و الصباحة و التقا والجود في وجد وفي إحراج

تخشاه أسد الغاب في أجمالها والروم في الأسوار والأبراج[1]

ولعل مما يثبت احتكام الشعراء في العصر الزياني إلى استعمال معجم ديني في علاقته مع الأخلاق دائما، ما ورد من شعر على لسان يوسف القيسي المتوفي أوائل القرن التاسع الهجري حين مدح الرسول (ص)، فعرض بعض من صفاته الفاضلة، كالإحسان والجود والصدق والحلم والعز، وهي صفات مؤسسة في نظر الشاعر على الهداية والتقوى، حيث يقول :

جود وإحسان وصدق في الهدى حسن وعقد في التقى مستحكم

الحلم أوسع والجناب مؤمل والعز أمنع والسجية أكرم[2]

ويمكن للدارس أن يقف على أشعار كثيرة تتعلق بالمعجم الديني أو الفلسفي أو الطبيعي أو السياسي أو الاجتماعي، بل إنه يلحظ الترابط بينهم جميعا .

ب – الأبنية والإيقاع.

إن دراسة هذا الجانب الفني للشعر الزياني، إنما هي دراسة للبناء الشعري أو التركيبة الشعرية من حيث هي حروف وأفعال وأسماء منسجمة مع بعضها بعض؛ أو إن دراسة الأبنية على خلاف الدراسة المعجمية السابقة التي خصصناها في الغالب للفظة المفردة ومعناها ووظيفتها الأخلاقية التي تميزت بها .

[1] الإحاطة. مج : 2، ص : 551.
[2] نظم الدر والعقيان. ص : 176.

ولذلك يتعين علينا في الكشف عن النزعة الأخلاقية للشعر الزياني دراسة القضية في علاقتها مع الإيقاع الخارجي والداخلي للأبنية والتراكيب الشعرية.

- البناء والتركيب في ضوء الموسيقى الشعرية.

ندرس هذه القضية الفنية من خلال التلاحم بين الإيقاع الصوتي لجرس الحروف والكلمات والعبارات وأثر هذا الجرس وإيقاعه في الشعر وموسيقاه؛ أو بمعنى آخر إن الإيقاع هو أثر التعبير اللغوي لوجدان الشاعر و مواجده، حيث يختلف باختلاف المنزع الخلقي من حيث الدرجات الموسيقية قوة وضعفا وشدة ولينا وخفة وثقلا، وقد تتوافق الدرجات الموسيقية مع عواطف الشاعر الخلقية، إذ اختار ابن خميس (-708هـ) صيغة فواعل لقافيته واستعمل ألفاظا لها من القوة ما لأصواتها وحروف كلماتها المكررة من قوة في إيقاعها الموسيقي على نفسية القارئ والسامع بخاصة.

ولما أراد ابن خميس أن يعبر عن إحساسه بثقل الدنيا ومله منها وكرهه لشرورها، فإنه اختار إيقاع الكلمة الشعرية القوية التي تتوافق مع إيقاع نزعته الخلقية في الحياة حيث الجنوح إلى الزهد، لا سيما أن للزاهد أخلاقا تعتري نفسه من الصبا كأن يتبع الهوى وزيغ الشيطان وسوء الخلق. ولذلك يقال عن هذه النزعة الخلقية إنها لا تخرج عن بناء لغوي أو تركيب شعري فاضت به قرائح أغلب الشعراء الزيانيين.

ويمكننا بالنظر إلى شعر ابن خميس أن نستشف علاقة الصنعة الفنية بالموسيقى الشعرية، وهذا لما تحمله هذه الخاصية من أثر في توافق الإيقاع الموسيقي مع الإيقاع الوجداني للشاعر، بيد أن الشاعر طابق حينا وجانس حينا آخر مستعملا ألفاظا تدل على موسيقى شعرية تنساب انسيابا تلقائيا لمشاعره ومواجده الموسومة في نزعته الخلقية.

وتوضيحا للعلاقة بين الأخلاق والإيقاع الشعري يقول الشاعر مفسرا ما ذهبنا إليه آنفا :

تأمل بعد الترك رجع ودادها وشر ودادها ما تود الترائك

حلا لك منها ما حلا لك في الصبا فأنت على حلوائه متهالك[1]

لقد اختار الشاعر لقافيته صيغة فواعل كالترائك مع أنه خالف الصيغة في متهالك، ولكن الدارس المتصفح للقصيدة يلاحظ تكرار الصيغة الأولى (فواعل)، وتكرار الحروف المجهورة لفخامتها وقوتها قوة الإحساس وصدق الشاعر معا . وللإشارة إن حرف الألف الذي تكرر في البيتين إحدى عشرة مرة، حرف مجهور مقارنة بالحرف المهموس الشين الذي تكر مرة واحدة؛ ولعل إحصاء الحروف المجهورة في البيتين فقط من دون القصيدة كاملة، يبين أن الشاعر استعمل أربعة وثمانين حرفا مجهورا مقابل ثلاثة وعشرين حرفا مهموسا، وهذا ما يدل من وجهة أخرى على أن [redacted] استخدام الشاعر لهذه الخاصية اللغوية الفنية، إنما يؤكد ما ذهبنا إليه في كون الموسيقى الشعرية خاضعة في تفاوت درجاتها إلى تفاوت درجات الإحساس والصدق لدى الشاعر، فهذا ما دفع بابن خميس إلى تكرار حروف وعدم اكتراثه لذكر غيرها، وكذلك قد عمد إلى تكرار ألفاظ بالمجانسة بين الترك و الترائك وبين ودادها وودادها، والمطابقة بين الترك والرجع.

وإن من خصائص الإيقاع الشعري التنوين في الكلمات حيث إن تنوين الكسر والضم أقوى من تنوين الفتح، وهذا ما يدل على التباين في طول النفس فلشدة وقع الآلام والأحزان والمخاوف واستدامتها في نفسيته مما يدفع به إلى التعبير عن استدامة هذا الإحساس باستعماله للتنوين المناسب لوقعه على نفسيته من وجهة، ووقع اللفظة في أذن السامع والقارئ من وجهة أخرى؛

أما طول النفس

[1] الإحاطة، مج: 2، ص : 562.

وقد يصحب استخدام هذه الخاصية الفنية استثمار الشاعر لحروف النداء والنهي والنصب والتأكيد وغيرها من الحروف التي تنسجم إيقاعاتها الصوتية الموسيقية مع مواجد الشاعر بخاصة، والمتلقي بعامة.

ويستعمل الشاعر إلى جانب التنوين والحروف أفعالا تدل على الماضي، نظرا لما تحمله دلالة الفعل من وقوع حدوثه في نفسيته؛ وقد لاحظنا هذه الميزات الفنية على سبيل التمثيل في شعر محمد المقري (-759هـ)، حيث عبر بصدق عن نزعته الأخلاقية، ذات الطابع الديني، والتي توافقت مع ما اختاره لها من إيقاع شعري ينم عن عاطفة تلظت أحشاء صاحبها نارا من الحب الإلهي و التوق إلى معرفته، وهو يستخدم تنويني الكسر والفتح، كما يستعمل حروف النداء والنهي والجزم والنصب والتأكيد، كل هذه لبعث جو شعري موسيقي يخضع لدرجة إحساس الشاعر بوحدة الله وحبه له؛ وهذا من حيث التجانس بين قوة الحرف ودلالته على قوة الإحساس أو من حيث التجانس بين ليونة الحرف ودلالته على رهافة الإحساس لدى الشاعر.

وقد استعمل الشاعر الفعل الماضي للدلالة على حب الله ورسوله، إضافة إلى أن هذا الفعل دال عن أن الحب قد ملكه و أتى على نفسه وغمر روحه. ودل الشاعر كذلك على أن إيقاعه الشعري يتوافق مع نزعته الخلقية كما يتوافق ونزعة كل نفس مولعة بهذا الغرام ومتأثرة به تأثرها بالإيقاع الموسيقي لحروفها وكلماتها :

وحل جمالي في الجلال فلا أرى سوى صورة التنزيه في كل صورة

...

فيا قلب لا ترجع تقطع بيننا ويا قلب لا تجزع ظفرت بوحدة

وبث غرام والحبيب بحضرة ورد سلام والرقيب بغفلة

...

ألا قاتل الله الحمامة غدوة لقد أصلت الأحشاء نيران لوعة

...

نظرت بصحراء البريقين نظرة وصلت بها قلبي فصل وصلت[1]

وتخلف التركيبة الداخلية للإيقاع باختلاف العاطفة التي ميزت النزعة الخلقية أو السياسية لدى الشاعر حيث إنه وبدلا من أن نلمس إيقاعا موسيقيا دافئا، فإننا نلمس بطء في بناء شعري آخر ما يدل على أن الشاعر في العصر الزياني قد استهدف نزعة خلقية ذات طابع سياسي كلما مال إلى استخدام البيان والبديع أو مال إلى توظيف صيغ مختلفة لقوافي الشعر أو أنه اختار حروفا وأفعالا وأسماء لها من الإيقاع ما يتماشى وعاطفة الشاعر من ناحية، كما يتوافق في الحالين مع نزعة السامع والقارئ من ناحية أخرى.

ولتوضيح العلاقة بين الإيقاع والبناء الشعري تحضرنا أبيات للشاعر أبي محلى السجلماسي الذي عبر في شعر ذي عاطفة سياسية تتأرجح أحاسيسها بين التأسي و الانفعال والحكمة والتجربة، كما تنم عن صدق صاحبها بخاصة وأنه يشير إلى أخلاقه الوطنية، ويحرص في الوقت نفسه على تحفيز مجتمع عصره للأخذ بمعاني هذه الأخلاق الفاضلة، من مثل التضحية في سبيل الوطن؛ وهو يقول فيما يعبر عن هذا الأمر :

فمن مبلغ عني قبائل بني عامر ولا سيما من قد ثوى تحت كافر

...

ويا معشر الإسلام في كل موطن وفي كل ناد سالف ومعاصر

[1] نفح الطيب، ج: 3، ص : 167-173.

ويا سادة العربان من آل هاشم وغيرهم بالله ما صبر صابر

...

أناشدكم بالله ما عذر جمعكم لدى الله في وهران أمر الخنازر[1]

وجريا على هذا النسق اللغوي الموسيقي وتوافقه مع نزعة الشاعر الأخلاقية الخاصة بحب الوطن دائما، يقول الشاعر محمد التواتي (-924هـ) :

يا أهل وهران انظروا نظرة شفقة لبلدتكم من قبل أن تتردتى

...

فلا تهملوا أمر الأعادي فإنهم بحال اجتماع واتفاق وشدة[2]

والخلاصة في دراسة الأبنية والإيقاع لشعر النزعة الأخلاقية في العصر الزياني هو أني استجليت بعض الميزات الفنية التي شكلت مجموعة من المقومات الفنية المختلفة التي تأسس عليها الشعر العربي في العصر الزياني بعامة؛ ولكن من غير أن أسهب في دراسة هذا الأمر لسعة مادته وتنوع طرائق دراسته.

ثانيا : خصائص الصورة الشعرية و مصادرها .

ما يسترعي الانتباه في بداية هذه الخاصية هو أن دراستها توحي بأثر القرآن الكريم و الحديث الشريف معا ، و لذلك سنكتفي في إبراز الأثر الديني بدراستنا لعلاقة القرآن الكريم بشعر النزعة الأخلاقية ، مبرزين في الآن ذاته دور الدين الإسلامي كأساس لهذا الشعر بعامة. ونشير في هذا المجال إلى مقومات فنية أخرى تأسست عليها الصورة الشعرية للنزعة الأخلاقية، حيث منها المصادر التراثية و التاريخ العربي الإسلامي و الرمز.

[1] تاريخ الجزائر العام. ج: 1، ص : 204.
[2] الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. ص : 15.

و قد تتوقف دراستنا هذه عند العلاقة القائمة بين خصائص الصورة الشعرية و مصادرها و بين القضية الخلقية لا أكثر.

أ – القرآن الكريم.

اقتبس الشاعر الزياني عموما صورا شعرية كثيرة من القرآن الكريم ، و دل على ذلك قول ابن خميس (-708 هـ) :

و ما زلت سمحا بنفسي كذا متى ما رأيت الوجوه الملاحا[1]

فإشارة الشاعر إلى السماحة و ما تعنيه من عفو و صفح إنما لتأثره بقوله تعالى : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللهَ يحِبُ المُحْسنِينَ﴾[2]. و من دلائل تأثر الصورة الشعرية في العصر الزياني بالقرآن الكريم ما عثرنا عليه في قول يوسف القيسي (توفي أوائل القرن التاسع الهجري) الذي عرض إلى خلال حميدة من إحسان و حلم و جود و صدق ، و هي صفات تحلى به الرسول (ص) ؛ فقال :

جود و إحسان و صدق في الهدى حسن و عقد في التقى مستحكم

الحلم أوسع و الجناب مؤمل و العز أمنع و السجية أكرم[3]

و إن تأثر الشاعر في صورته الشعرية بصفات الرسول (ص) كان نتاجا لتأثره بمثل ما تأثر به الرسول بعد نزول قوله تعالى عليه : ﴿وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ. وَ لا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ.إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ.﴾[4] وكقوله أيضا عن الحلم والإحسان معا : ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ. وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ.﴾[5] و للإشارة فقد تأثرت

---

[1] الإحاطة. مج : 2 ، ص : 544.
[2] القرآن الكريم-رواية ورش. سورة : المائدة ، الآية : 14 ، ص : 80.
[3] نظم الدر و العقيان. ص : 176.
[4] القرآن الكريم- رواية ورش. سورة :القصص، الآية : 77، ص : 322.
[5] م.ن. سورة : آل عمران، الآية : 134، ص : 50.

الصور الشعرية للنزعة الأخلاقية في أغلبها بالقرآن الكريم ، حيث دعا الشعراء إلى هذا الأخذ نظرا لما انتابهم من تفكير في نيل أجر عظيم و ثواب و مغفرة ؛ و لا بأس أن نكتفي في إثباتنا لهذه القضية بقول الشاعر ابن مرزوق (-681 هـ) ، و الذي كشف عن هذا الأثر الديني في صورة شعرية أدق من سابقاتها ؛ فقال و هو يذكر أسماء الصور القرآنية بأسمائها :

بحق القرآن و آياته و ما فيه مستودع من حكم

بطه و يس مع كافها بحرمة قاف و نون و القلم[1]

و تبدو النزعة الأخلاقية في هذين البيتين ذات طابع ديني صرفي و هي واردة لغير ذاتها ، لأن الشاعر لم يذكر الشيمة الخلقية و إنما أشار إلى عنصر لا بد أن يكتسب صفة الخلق الحسن و هو الحكيم أو الحكمة أو الحكم كما وردت به اللفظة في البيت الأول.

و تتمة لدراسة هذه القضية نقول إن القرآن الكريم حاضر في الشعر الزياني ذي النزعة الأخلاقية حضورا بألفاظه و بمعانيه و بقيمه الأخلاقية الفاضلة ، و لذلك يظل البحث في هذا المجال متصلا بإحصاء المادة الشعرية التي خضعت لمصدر واحد هو القرآن الكريم.

ب . المصادر التراثية.

كثيرة هي المصادر التراثية التي قام عليها شعر النزعة الأخلاقية في العصر الزياني ، منها التراث العربي الإسلامي والفكر الفلسفي الإنساني عموما، وعلى رأس مختلف العلوم و المعارف التراثية التي قام عليها شعر النزعة الأخلاقية نجد الشعر العربي قبل العصر الزياني.

[1] مجموع القصائد و الأدعية. ص : 52.

و نكتفي في هذا المجال بإبراز الأثر الفني في الصور الشعرية التي أبدعها الشعراء في العصر الزياني. ثم إن تركيزنا في الدراسة على هذا الجانب مرتبطة بالدور الذي كان يؤديه الشعر في الحياة العربية و الإسلامية ، ذلك لأنه ديوان العرب و المسلمين ، سجل كثيرا من الأحداث العلمية و العملية التي اتصف بها العربي و المسلم قبل العصر الزياني.

و على هذا الأساس كان الشعر العربي القديم قبل العصر الزياني أحد المقومات الفنية لشعر النزعة الأخلاقية في العصر الزياني و الدليل على ذلك هو أن شعراء النزعة الأخلاقية في العهد الزياني يرتقون إلى مصاف فطاحل الشعر العربي القديم و علماء العربية من أمثال زهير و حسان و المتنبي.

و من بين الصور الشعرية التي تدل على تأثر شعراء بني زيان بلغة الجاهليين تلك القصائد المولدية التي غالبا ما استهلها الشعراء بمثل ما كان الجاهلي يستهل قصائده إزاء وقوفه على الأطلال ؛ و لكن الشاعر الزياني و هو على خلاف الجاهلي يدين بالإسلام ، فإنه في احتفائه بالمولد النبوي و تعداده للمناقب الأخلاقية للرسول (ص) ، تراه يستهل قصائده بالوقوف على الأماكن المقدسة من مثل قبل الرسول الكريم الذي رمز إليه يوسف القيسي (توفي أوائل القرن التاسع الهجري) مستهلا مولديته بالوقوف على أماكن كالأبرقين و وادي العقيق و رامة و رند و الحجاز ؛ فقال في شوق و حنين :

يهفو لبرق الأبرقين تعللا و القلب منه دائم خفقانه

...

أترى أرى واد العقيق و رامة و يلوح رند الحجاز و بانه[1]

[1] بغية الرواد. ج : 2 ، ص : 44.

و لعل من الصور الشعرية التي تدل على أن شعراء بني زيان قد تأثروا في صورهم الشعرية بصور الشعر العربي القديم ما أورده ابن خميس (-708 هـ) في قوله :

و إلا أعاريب شم الأنوف كرام الجدود ، فصاحا صباحا[1]

فكأني بابن خميس يستقي صورته الشعرية عن الأنفة من الصور الشعرية التي نظمها المتنبي عن العزة و الأنفة التي كثيرا ما أشاد بها الشاعر في ديوانه الشعري ؛ و قد قال :

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام[2]

و قد تتفق الصورة للمتنبي مع الصورة الشعرية لابن خميس و هذا لكونهما عربيين كثيرا ما افتخرا بعروبتهما في أشعارهما . و حدث أن تأثر الشاعر الزياني في صوره الشعرية بصور غيره من شعراء عصره ، أي إن شعر النزعة الأخلاقية في هذا العصر كان مقوما فنيا لذاته ، و هذا ما نستجليه في قول أبي حمو (-791 هـ) :

و تنصر مظلوما و تمنع ظالما إذا شيك مظلوم بشوكة ظالم[3]

إنها صورة شعرية نقلها شاعر زياني آخر وهو إبراهيم التازي (-866 هـ)، إن لم نقل إنه ضمن ألفاظا وغيّر أخرى دون أن يغيّر المعنى الذي ذهب إليه أبو حمو، وهو العدل في قول التازي :

و تنصر مظلوما و ترفع خاملا و تكسب معدوما و تجبر ذا كسر[4]

بل لقد تأثر أحمد بن عيسى البرنسي بصورتي الشاعرين السابقين معا، إذ قال مفتخرا بنفسه:

---

[1] المنتخب النفيس. ص : 92.
[2] ديوان المتنبي. ص : 163.
[3] بغية الرواد. ج : 2 ، ص : 95.
[4] البستان. ص : 48.

و أقهر جبارا و أدحض ظالما و أنصر مظلوما بسلطان سطوتي[1]

ثم إن الدارس المتصفح لشعر النزعة الأخلاقية في العصر الزياني يلاحظ التأثير العميق للشعر العربي القديم في الشعر الزياني بعامة ، كما يلاحظ مدى تأثير و تأثر الشعراء بلغة و أساليب و صور بعضهم ببعض ؛ و هذا ما يجعل المجال فسيحا للبحث في الشعر العربي القديم على أنه مصدر تراثي و فني للنزعة الأخلاقية في العصر الزياني ما دام الاتصال وثيقا بين الشعر الزياني و الشعر الجاهلي و الإسلامي و الأموي و العباسي و الأندلسي.

و إذ كانت الصورة الشعرية للنزعة الأخلاقية في العصر الزياني قائمة على هذه المناهل الشعرية ، فإن لكل منهل تاريخا يعد مقوما فنيا للشعر العربي بعامة و الشعر الزياني بخاصة. ذلك أن دراسة القضية الخلقية في ضوء الشعر الزياني إنما هي دراسة لأحداث و وقائع صورها هذا الشعر ، و اتخذها مقوما فنيا له دوره و أداؤه في إخراج مختلف الصور الشعرية مثلما يتضح في الإشارة الآتية.

جـ. التاريخ العربي الإسلامي.

لا تعدو دراسة التاريخ العربي الإسلامي في شعر النزعة الأخلاقية أن تكون دراسة لأحداث تاريخية و وقائع و مواقف بطولية و علمية و عملية حفل الشعر الزياني بها و تأسست عليها مختلف الصور الشعرية. و قد سجل الشعر الزياني حدثا تاريخيا و مناسبة لا زال المسلمون يحتفلون بها إلى يومنا هذا ؛ و نعني بها المولد النبوي الشريف الذي قل شاعر من شعراء العصر الزياني إلا و نظم فيه شعرا. فكان أبو حمو (-791 هـ) شديد العناية بهذا الحدث التاريخي الديني ، إذ حرص على الاحتفاء بهذه الليلة كل سنة و كان هو نفسه ينظم قصائد

[1] البستان. ص : 48.

في مدح الرسول (ص) ، رابطا بين نزعته الأخلاقية و إحيائه لهذا الحدث التاريخي ؛ و قد عبر عن صبره واصلا هذه الشيمة بحبه للرسول (ص) أي إن القضاء و القدر بعدم اللقاء كلفه الصبر لهذا الأمر مما دفع به إلى التوق و الزفرة و النواح ؛ فقال :

مشوق تزيا بالغرام وشاحا ... متى ما جرى ذكر الأحبة صاحا

تعذبه أشجانه و هو صابر ... و يبدي اشتياقا زفرة و نواحا

محب مشوق قيدته يد الهوى ... أسير لديكم لا يريد سراحا

رميتم بأكبادي سهام نواكم ... و أودعتكم قلبي أسى و جراحا[1]

و اهتمام أبي حمو بهذه المناسبة دفع به إلى نسخ القرآن الكريم و الحديث الشريف حيث دل على هذا الأمر كاتب بلاطه و شاعره المعاصر يوسف القيسي الذي صور نزعة أبي حمو الأخلاقية التي تجنح إلى العناية بالعلوم الدينية ، فيقول مادحا إياه :

لئن كان بحرا في العلوم فإن في ... بنان يديه للندا أبحرا عشرا

له بكتاب الله أعنى عناية ... و بالسنة الغراء هو المغرم المغرا

فنسخ كتاب الله جل جلاله ... و نسخ البخاري ضامنا له النصرا[2]

و لما كان للإنسان عقيدة أو اعتقاد في الحياة ، فإن في الأبيات السابقة ما يدل على أن الاعتقاد بالقرآن و السنة هو اعتقاد بمجموع الأخلاق التي سنها الإسلام ، أي إن الأخلاق في الإسلام هي الضابط الرئيسي للشعر الزياني بعامة.

[1] بغية الرواد. ج : 2 ، ص: 97.
[2] مجلة الأصالة – العدد : 11 ، ص : 103.

و إضافة إلى ذلك إن في الأبيات السابقة ما يدل على أنها وثيقة تاريخية تؤرخ لملك من ملوك بني زيان عني بالقضية الأخلاقية. ثم إن الدارس لشعر النزعة الأخلاقية يقف على صور شعرية كثيرة صورت هذا الحدث التاريخي الذي عرف في الشعر العربي بالمولديات.

و لم يكتفي شعراء هذا العصر بتصوير هذا الحدث ، لأنهم استطاعوا أن يحفظوا لنا من التاريخ العربي الإسلامي أعلاما كثيرين ، و هذا ما عثرنا عليه مثلا في صورة شعرية ذكر ابن خميس (-708 هـ) فيها أسماء الأنبياء والرسل والصحابة والتابعين والصالحين و الأولياء، وهو ما يعني اقتداؤه بهؤلاء جملة و تفصيلا ؛ فقال في معرض الدعاء :

بما قد دعاك به آدم و نوح فآب بنيل العصم

...

كذا الخليل و ثم الذبيح و هود و لوط هداة الأمم

و يوسف أيضا بما قد دعاك و يعقوب في شمله فانتظم

...

بدعوة خير الورى كلهم من العرب أجمعهم و العجم

...

بحق الصحابة و التابعين و أهل العلوم و أهل الحكم

و بالأولياء جميعا و من بكى خوف ذنب له و ندم[1]

و إن من أثر التاريخ العربي و الإسلامي في تركيب صور شعرية ذات نزعة أخلاقية ، ما صوره الشعراء من صراعات مختلفة سواء أكانت هذه الصراعات إقليمية داخلية ، و نعني

[1] مجموع القصائد و الأدعية. ص : 51 – 52.

بها على الأخص النزاعات على الملك بين القادة الزيانيين ذواتهم ، مما أدى بذلك إلى تفتق وحدة الملك و تعرض الدولة الزيانية إلى العدوان الخارجي. فكان هذا العدوان بمثابة صراع قائم بين الإسلام و النصرانية منذ أمد طويل ؛ و لعل أبا محلى السجلماسي (توفي في المئة السابعة ببجاية) يصور هذا الحدث التاريخي ، ناهيك عن أنه يدل على نزعة أخلاقية هدفها الذود عن الإسلام و حماه ، أي إن من خلق المسلم المؤمن الدفاع عن وطنه و التضحية لأجله أولا و آخرا ؛ فيقول :

و يا معشر الإسلام في كل موطن و كل ناد و سالف و معاصر
و يا سادة العربان من آل هاشم و غيرهم بالله ما صبر صابر
و يا معشر الأتراك يا كل عالم و كل ولي حافظ للأوامر
أناشدكم بالله ما عذر جمعكم لدى الله في وهران أمر الخنازر[1]

و نلاحظ في الأبيات ذاتها أن الشاعر كرر لفظة الصبر فعلا و فاعلا ، إنما ليوحي بأن الصبر في الدفاع عن وحدة الوطن و المسلمين مؤمول بالنصر ، و هو خلق حسن. و أما ذهاب الصبر عن النفس في الدفاع عن عقيدتها و بلدها فمرهون بالانهزام و الاندحار و التعرض للذل و الهوان ، و هذا ما ليس من الخلق الحسن.

و إن لم يحدد أبو محلى تاريخ غزو الإسبان للجزائر ، فإنه حدد المنطقة التي غزاها الغازي و هي وهران ؛ و قد دعم موقف أبي محلى الشاعر محمد التواتي (-924 هـ) الذي أشار إلى شيمة الشفقة و هي تعني الرحمة و الرأفة و الإحسان ، و يوحي بأن الوطن في حاجة إلى الشفقة بمثل ما يحتاج الإنسان إلى الحنان و العطف و الرحمة و الإحسان من لدن أخيه

[1] تاريخ الجزائر العام. ج : 1 ، ص : 204.

الإنسان ، فكذلك الوطن إن أشفق عليه الإنسان ، فإنما إشفاقه عليه لن يتم إلا بالدفاع عنه ؛ وهذا ما صوره الشاعر في تأريخه للفترة التي اشتد فيها القتال بين الجزائر المسلمة و إسبانيا النصرانية ؛ فيقول في وهران و أهلها :

يا أهل وهران أنظروا نظرة شفقة لبلدتكم من قبل أن تتردتى

...

فلا تهملوا أمر الأعادي فإنهم بحال اجتماع و اتفاق و شدة[1]

و إن من الصور الشعرية التي استمدت قيما خلقية من التاريخ العربي الإسلامي تلك الصورة التي مدح في خلالها علي الخزاعي (-789 هـ) أبي فارس سلطان المرينيين في تلمسان ، فأشار الشاعر إلى قضية أخلاقية لها بعد آخر في شعره ، و هو أن الصفح دون الظلم لم يعد شيمة خلقية يكنها الإنسان لأخيه الإنسان فحسب ، بل على هذا الإنسان أن يبدي صفحا لغيره من الكائنات الحية ؛و هذا ما كان ينم عنه الشاعر حين مدح السلطان و حثه على ألا يظلم الفرس كحيوان يستحق الصفح هو الآخر بمثل ما يستحقه الإنسان. و لذلك فقد احتج بما ذهب إليه في شعره بالتاريخ العربي الإسلامي لما استحضر قصة كبابة الرسول (ص) الذي صفح عن فرسه ، و هو ما يوجب على الممدوح أن يكون مقتديا بسناحة الرسول (ص) ، فيصفح هو الآخر عن فرسه التي كبت به بحيث قال شاعرا في هذا الشأن :

مولاي لا ذنب للشقراء إن عثرت و من يلمها – لعمري – فهو ظالمها

...

و لم تزل عادة الفرسان مذ ركبوا تكبوا الجياد و لم تنب عزائمها

[1] الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. ص : 15.

و في رسول الله إسوتنا أعلى النبيئين مقدارا و خاتمها

كبابة فرس أبقى بسقطته في جنبه خدشة تبدو مراسمها[1]

و إن من أثر التاريخ الإسلامي في بناء صور شعرية للنزعة الأخلاقية في العصر الزياني هو أن أبا الفضل العصامي (كان حيا بعد 776 هـ) مدح أبو حمو الثاني فأشاد بعزته كخصلة ارتبطت بصورة تاريخية عربية إسلامية هي الفتح ؛ أي إن الفتح العربي الإسلامي موقف يتطلب من الفاتح أن يتحلى بالخلق الحسن ، و هذا بمثل ما تحلى به أبو حمو حين أقدم على فتح تدلس و بجاية ، فإنه اتصف بالعز الذي دفع به إلى فتح المدينتين و نشر الإسلام بهما .وفي تصوير هذه النزعة يقول :

وافت بفتح تدلس لك مالكي فاهنأ بملك بالفتوح موزور

فتدلس تقضي بفتح بجاية فانهض بعزك أو بسعدك تظفر

...

و بقيت في العز المكين مؤيدا مهما سرت نفحات روض مزهر[2]

و نلاحظ في البيتين على أن تدلس و بجاية كانت في وقت مضى من إمرة الدولة الزيانية و هذا الشاهد تاريخي ارتبط بشعر النزعة الأخلاقية في هذا العصر .

د – الرمز.

لسنا بحاجة إلى تعريف مصطلح الرمز ، نظرا لكثرة المفاهيم و الاتجاهات الفكرية التي تحدد معنى هذا المصطلح ، و لذلك سنكتفي ههنا بدراسة الرمز كمقوم فني لشعر النزعة

[1] تاريخ الجزائر العام. ج : 2 ، ص : 102-103.
[2] بغية الرواد. ج : 2 ، ص : 315-316.

الأخلاقية في العصر الزياني ، معتمدين في ذلك على العناصر التي تدل عليه و على أن الشعراء بني زيان وظفوا هذا الفن البلاغي للتعبير عن نزعاتهم الخلقية المختلفة.

و لعل من الصور الشعرية التي تدل على ذلك هو أن أغلب الشعراء في هذه الفترة الزمنية قد وظفوا لفظة البحر يرمزون بها إلى صفات و معان خلقية عديدة ، و على رأسها خلة الكرم و ما تعنيه من جود و سخاء و عطاء ؛ إذ رثى محمد بن أبي جمعة التلالسي (عاش بعد سنة 760 هـ) والد أبي حمو الملك أبا يعقوب ، فوصفه بالكرم مستعيرا لندى ممدوحه لفظة البحر ، و هذا لما تدل عليه كلمة البحر من خيرات ، و هي في نظر الشعر خيرات شبيهة بالخيرات التي يغدقها ممدوحه على الرعية إغداق اليم بخيراته على البشر ؛ و في ذلك يقول :

ردوا الذي حاز المكارم و العلا بحر الندى يحيى به المعمور

بكت الأرامل و اليتامى بعده إذ ما له بين الكرام نظير[1]

و قد أشار حسن بن إبراهيم بن سبع (كان حيا عام 775 هـ) بالمثل إلى البحر و رمز به إلى الكرم أو الجود ، فهو حينما شبه ممدوحه بالبحر في كرمه إنما لأثر هذه الخلة في حياة الإنسان فهي تفضي بالمنفعة التي لا تختلف عن منفعة الشمس للإنسان بعامة ؛ و في ذلك يقول مادحا أبا حمو الثاني :

هو البحر جودا و الكواكب رفعة و شمس الضحى نفعا فمن ذا يفاخر[2]

و لعل من الرموز التي حفل بها شعر النزعة الأخلاقية في العصر الزياني الرمز إلى الوفاء و معناه الإصلاح ، ثم الرمز إلى نقيضه عدم الإخلاص و معناه الفساد ، أي إن أبا محلى السجلماسي استعار لغزاة الجزائر من الإسبان صفة الخنازير ليس إلا لأن الشاعر حاول أن

[1] بغية الرواد. ج : 1 ، ص : 111.
[2] م.ن. ج : 2 ، ص : 284.

يعبر عن نزعة خلقية مفادها أن الوفي الصالح و المخلص للوطن هو الذي يدافع عن وطنه ، و أن الخائن الذي يعيث في الأرض فسادا هو الذي كان على درب الغزاة من النصارى لمدينة وهران الجزائرية ، فهم مفسدون بمثل ما يعيث الخنزير في الأرض فسادا ؛ و يقول في ذلك :

و جيرانهم في الغرب من كل ماجد طويل القنا أهل الوفاء و المغافر

...

أناشدكم بالله ما عذر جمعكم لدى الله في وهران أمر الخنازر[1]

و لا يستبعد أن يكون تشبيه الشاعر للعدو الغازي بالخنازير ناتجا عن نزعة أخلاقية ذاتية تدل على حب الشاعر لوطنه و بخاصة في ذكره لبلده وهران.

و مما يمكن قوله عن الرمز كفن بلاغي كثيرا ما مال شعراء النزعة الأخلاقية إلى توظيفه هو أنهم استثمروا عناصر مختلفة من الطبيعة يرمزون بها إلى معاني و قيم خلقية عديدة ، حيث مدح مثلا أبو حمو (-791 هـ) الرسول (ص) في قصيدة أشار فيها إلى خلة المودة و أكد على هذه المندوحة ، رابطا إياها بمنطقة الحجاز و هي منطقة جبلية تعد عنصرا من عناصر الطبيعة الجامدة التي ترمز أولا إلى الوطن الأم ، كما تدل في شعر الشاعر على غايته الخلقية ، و هي تعبيره عن شوقه الحار إلى المنطقة بكل إخلاص و مودة بخاصة و أنها أرض زانها الرسول (ص) شرفا و فضلا و كرما ؛ و في ذلك يقول :

تناسيتم عهدي و حفظ مودتي و حبكم في القلب ليس بمنسي

...

بيثرب قلبي و الحجاز مودتي و إن عاقني عن كل رشد به غي[2]

---

[1] تاريخ الجزائر العام. ج : 1 ، ص : 204.

[2] نظم الدرر و العقيان في بيان شرف بني زيان. ص : 166-168.

و لعل من الصور الشعرية التي تأسست على الرمز في العصر الزياني ما عثرنا عليه في شعر يوسف القيسي (المتوفى أوائل القرن التاسع الهجري) الذي افتخر بشهامته و دل على هذه الصفة باستخدامه لعنصر من عناصر الطبيعة الحية و هو الهزبر (الأسد) الذي يدل قبل كل شيء على معاني خلقية يتصف بها الإنسان كالجرأة و الإقدام و الشجاعة و الشهامة ؛ فيقول في ذلك :

ما عابد الرحمن أن تسأل به إلا هزبر في الكريهة ضيغم

شهم يعل [redacted] البيض من مهج العدى و السمر في ثغر النحور يحكم[1]

ويدعم إبن خميس (-708 هـ) موقف القيسي، إذ يستعمل لفظة الليوث التي لا تختلف في معناها مع ما تعنيه لفظة الهزبر أو الأسد سوى أن الشاعر مدح لسان الدين بن الخطيب وأسلافه مستعيرا لهم صفة الليوث للدلالة على شجاعتهم و بسالتهم في الحروب ؛ فقال :

كم كان في الماضين من أسلافهم من رب إكليل و صاحب تاج

أساس كل رياسة و رؤوس كل سياسة و ليوث كل هياج[2]

و إن من الرموز التي استخدمها الشعراء في شعرهم في العصر الزياني ما وقفنا عليه في شعر إبراهيم التازي (-866 هـ) الذي باشر بدعوة إلى التخلي عن الغزل و اللهو و الغناء و المجون، مؤكدا على ذلك باستعماله رموزا تفيد معاني هذه الموضوعات ، حيث سعاد و زينب إسمان أقل ما يدلان عليه هو أنهما جنسين أنثيين استعملهما الشعراء منذ القديم كرمزين في أشعارهما الغزلية ؛ و كذلك الرباب و المعازف استعملهما الشعراء قبل العصر الزياني و خاصة في الموشحات ، و هما رمزين يدلان على الغناء و ما يتبعه من لهو و مجون

[1] نظم الدر و العقيان. ص : 177.
[2] الإحاطة. م ج : 2 ، ص : 550-551.

و ما إلى ذلك من المعاني التي لا تتماشى و نزعة الشاعر الأخلاقية التي يدعو من خلالها إلى العفة ، و هذا بالابتعاد عن التغزل بسعاد و زينب و غيرهما ، إضافة إلى العد عن الرباب و المعازف و عالم اللهو و المجون.

و لعل الشاعر في استعماله لهذه الرموز يجنح إلى الربط بينها و بين منطق من الحكمة أو الزهد و هو أن الدنيا و أشكالها المزخرفة كتلك الرموز السابقة ليست بشيء إلا عوارا ؛ فيقول :

و عد عن الرباب و عن سعاد و زينب و المعازف و العقار

فما الدنيا و زخرفها بشيء و ما أيامها إلا عوار[1]

و نؤكد في ختام في الدراسة الفنية أن البحث في المقومات الفنية لشعر النزعة الأخلاقية في العصر الزياني بحث يبقى متواصلا ، و هذا بالنظر إلى كل باحث أراد أن يثري هذه الدراسة بإضافة جديد إليها أو بالكشف عما نكون قد أغفلناه.

و يمكن القول إن الدراسة الفنية واسعة سعة شعر النزعة الأخلاقية في العصر الزياني ، إذ بإمكان الدارس أن ينجز بحثا قائما بذاته في هذا المجال وحده ؛ و لذلك لم تك وقفتنا مطولة أو مفصلة ؛ و عذرنا في ذلك أن صفحات هذا البحث ستزداد و حجم البحث سيتضخم أكثر من العرف الجاري العمل به.

[1] البستان. ص :62.

الخاتمة

إن ما يمكن أن نخلص إليه في هذه الخاتمة هو أن النزعة الأخلاقية في الشعر الزياني على صلة وثيقة ببوادرها المتجذرة في الشعر العربي القديم قبل العهد الزياني. وكان أول ما استنتجناه في دراسة هذه القضية هو اتصاف الشعر الجاهلي بإكرامه الضيف وتفاخره بهذه الخصلة في مختلف المواقف اليسيرة والعصيبة؛ وكانت هذه الشيمة أساسا لكل فضيلة اتسم بها العربي في الجاهلية بخاصة، كما كان الشعر آنذاك وسيلة عند الشعراء الذين أشادوا بالأخلاق كالشاعر الحكيم زهير بن أبي سلمى. ثم صار الشعر العربي وسيلة وغاية بمعنى الكلمة إثر مجيء الإسلام ونزول الوحي واتباع المسلمين سنة الرسول (ص) والذي أمرهم بأن يتحلوا بمكارم الأخلاق من صدق وعدل وإخاء، مما دفع بالشعراء إلى التخلي عن موضوعات لا تخدم الأخلاق كالهجاء والفخر بالأنساب وغيرهما، إضافة إلى أنهم خدموا موضوعات دينية صرفة لها علاقة وطيدة بالخلق الحسن حيث اشتهر منهم حسان بن ثابت (ر) الذي تصدر الشعراء منزلة من حيث الشعر الذي عبر به عن نزعة أخلاقية ذات طابع ديني صرف، على الرغم أنها تنوعت واختلفت من حين إلى آخر طبقا لمقتضيات الحياة الإنسانية وبيئتها وزمانها، ووفقا لطبيعة الموضوعات التي طرقها الشعراء من زاوية أخرى، وقد لاحظنا ذلك من خلال استقصائنا لمجموع النوازع الخلقية التي آثرها الشعراء العرب والمسلمون في العهود الموالية لصدر الإسلام، فاشتهر في هذا الخضم الأخطل في العصر الأموي والمتنبي في العصر العباسي وابن خفاجة في العصر الأندلسي وابن رشيق في العهد الجزائري وغيرهم ممن ذكرناهم في دراستنا قد عبروا عن نزعة أخلاقية في صور شعرية متشابهة ومتطابقة أو متباينة تارة أخرى. ويمكننا تشبيه النزعة الأخلاقية في الشعر العربي بالحبل الذي لا ينفصم على مر الزمان والمكان، لأنها قضية اتصلت بالشعر الزياني الذي مت بصلة إلى الشعر العربي

لغة وفكرا ومعنى وعاطفة ووظيفة وغاية؛ بل لقد عبر هذا الفن عن القضية الخلقية تعبيرا دل قبل كل شيء على أنه وسيلة وغاية بمثل ما سخر إليه الشعر العربي من قبل وبخاصة الإسلامي منه.

وحيث عرض الشعراء في العصر الزياني إلى موضوعات شعرية عديدة كالمدح والفخر والرثاء والشكوى والزهد وغيرها، فإنهم ربطوا هذه الموضوعات بشتى النوازع الخلقية التي تداولها الشعراء الذين سبقوا العهد الزياني، إضافة إلى أن الشاعر الزياني اهتم بعدة قضايا مكررا استعمالها من مثل إباء الضيم والشجاعة والحلم والصفح والجود والإحسان والعدل والإخاء، أضف إليها ما ذكرناه في الدراسة من شيم خلقية لم يتكرر استعمالها كسابقاتها. والذي نستنتجه من دراستنا لهذا الموضوع هو أن النزعة الأخلاقية وردت في مجموعها لغير ذاتها أي إن الشاعر في شعره المدحي والافتخاري مثلا أشار إلى الأخلاق على أساس أن ممدوحه تحلى بخلق حسن، ولذلك يستحق المدح ولعل ممدوحه هو الغرض والغاية اللذين يهدف الشاعر إليهما؛ وكذلك حين يفتخر الشاعر بأخلاقه، فهو يشير إليها عرضا، لأن موضوع القصيد والغاية منه هي الفخر بالنفس. وقد اكتفى الشاعر في بعض الأحيان بالإيحاء إلى الشيمة الخلقية للدلالة على أن الغاية من الشعر ليست مرتبطة بالمدح أو الفخر أو غيرها من الموضوعات الشعرية فحسب، بل إن القضية الخلقية كانت غاية من غايات الشاعر في نظمه، و هذا بدليل الصور الشعرية المختلفة التي عكست إشادة الشعراء بالأخلاق ومدى تنويههم بأفضلها وبأهمها في حياة الإنسان. وسواء أوردت النوازع الخلقية في الشعر الزياني لغير ذاتها أم أنها شكلت غاية إلى حد ما، فإنها في المقابل قد تميزت بخاصية اجتماعية، وهذا ما يبرره الشعر الزياني الذي صور ما عبرت عنه النفس الشاعرة من أخلاق ارتضتها لنفسها

مستقلة عن غيرها؛ وقد تجلت هذه الخاصية بصورة أدق في شعر المدح الذي لاحظناه بخاصة في المولديات التي مدح الشعراء من خلالها الرسول (ص) وهم يشيدون بأخلاقه المثلى كما صور الشعر الزياني النزعة الأخلاقية الاجتماعية بحكم أن الشاعر اتصل بمجتمعه عن كثب، وعدد مناقبه الأخلاقية. ولعل الخاصية الاجتماعية التي ميزت الشعر الزياني ذا النزعة الأخلاقية قد وسمت طبيعة النزعة بسمات أخرى فدلتنا على علاقة الأخلاق بمختلف السلوكات الصادرة عن الإنسان، لأنها نزعة أخلاقية ذات طابع اجتماعي تارة ونزعة أخلاقية سياسية ودينية تارة أخرى.

واستنتجنا إلى جانب ذلك علاقة النوازع الخلقية بمختلف الأفكار والعواطف والغايات التي ارتبطت بالشاعر وبمجتمعه وواقعه من الحياة؛ وهذا ما يعني أن الشعر الزياني قد عبر عن نزعة أخلاقية لها شعراؤها وزمانها ومحيطها خلافا لمحيطها الجغرافي وزمانها وشعرائها الذين سبقوا شعراء العصر الزياني زمانا. ومما يلفت النظر في دراسة هذا الموضوع هو غلبة الطابع الديني على النزعة الأخلاقية في الشعر الزياني عموما، وهي ميزة لا تختلف في مضمون شعرها وشكله عما ألفه الشعر العربي الإسلامي على الخصوص، لأن الشعراء ههنا سخروا شعرهم لخدمة الدين الذي حثهم على التحلي بمكارم الأخلاق من عدل ومساواة وإحسان وغيرها من النوازع التي نص الشعر الزياني عليها حتى و إن كانت الظروف المعيشة مختلفة بين شعراء بني زيان ومن سبقوهم من قبل؛ وتضل الغاية التي كانت تربط بينهما واحدة موحدة، وهي خدمة العقيدة السمحة والإشادة بالأخلاق الفاضلة.

وعلى هذا الأساس اقتربت النظرية الخلقية الشعرية من هؤلاء الشعراء، فلا نجزم إذا اعتبرناها متباينة مع النظرية الخلقية الشعرية في العصر الأموي والعباسي والأندلسي، بدليل أن

أغلب الشعراء في هذه العصور قد أكثروا من النظم في موضوعات لا علاقة لها بالأخلاق كالفخر والهجاء والمجون؛ وأقلوا في موضوعات أخرى كالحكمة والزهد وغيرهما من الموضوعات التي شدت إليها شعراء وإن قل عددهم، لكنهم أسهموا مساهمة جبارة في خدمة القضية الخلقية و هم إزاء ذلك يلتقون مع شعراء صدر الإسلام و العهد الزياني في إيثارهم للجانب الخلقي و في تسخيرهم الشعر وسيلة و غاية لذلك ؛ و قد استخلصنا إلى جانب ذلك اهتداء الشعراء في العصر الزياني إلى استخدام لغة تفاوتت مستوياتها من حيث إنهم وظفوا اللغة الجزلة و الغريبة و الممتنعة و الفلسفية ، و هم متأثرون بلغة الشعر الجاهلي أو الأموي أو العباسي أو الأندلسي ، إضافة إلى أنهم تأثروا قبل ذلك بلغة الحديث النبوي الشريف ، كما تأثروا أولا و آخرا بلغة القرآن الكريم إثر اقتباساتهم ألفاظا و معاني كثيرة من آي الذكر الحكيم. أضف إلى ذلك أن استخدام الشعراء للبيان و البديع لم يمنعهم من المحافظة على الطابع الجدي للموضوع الأخلاقي ، لأن أساسه الصدق لا الهراء و لا المبالغة و لا الإسراف كميزات غالبا ما ترتبط بموضوعات هزلية غير جدية. و حيث اتسمت عواطف أغلب الشعراء بالصدق فإنهم اختاروا في تعبيرهم عن النزعة الأخلاقية موسيقى شعرية تراوحت درجاتها بين القوة و الضعف و الشدة و اللين و الخفة و البطء ، و هذا بمقدار ما تراوحت أحاسيسهم و أحاسيس مجتمعهم و تفاعلاتهم جميعا مع القضية الخلقية. و قد توقف اختيار الشعراء للأوزان الشعرية و قوافيها على علاقتها بالذات و بالمجتمع من حيث صياغة التفعيلة العروضية و إيقاعها مع إيقاع القافية في نفسية الشاعر من وجهة و من حيث إيقاعهما في نفسية السامع و القارئ من جهة أخرى. و قد نستنتج من دراسة الجوانب الفنية لشعر النزعة الأخلاقية العلاقة القائمة بين هذه النزعة في الشعر الزياني و القضية نفسها

في الشعر العربي قبل العصر الزياني ، و هذا لأن شعراء العهد الزياني حافظوا على نظام القصيدة العربية لغة و صنعة و موسيقى و أوزانا و قوافي. و على الرغم أن هذه الخصائص عبارة عن أصول واحدة تربط بين الشعر الزياني و الشعر العربي قبل العصر الزياني فإنها مختلفة ، نظرا لكون الشعر الزياني مال إلى استخدام لغة و بيان و بديع و موسيقى و أوزان و قوافي تتماشى مع أفكاره و عواطفه و غاياته ، كما تتماشى مع أفكار مجتمع عصره و عواطفه و غاياته ، أضف إلى ذلك أنها خصائص فنية لشعر أخلاقي عربي إسلامي له محيط جغرافي و زمان ينفرد بهما عن بقية البيئات و الأزمنة التي قيل فيها شعر النزعة الأخلاقية العربي قبل العصر الزياني.

و قد أخضع شعراء بني زيان تعاملهم مع القضية الأخلاقية لاختلاف نظراتهم الفكرية و معانيهم الباطنة و الظاهرة و عواطفهم و غاياتهم و حياة مجتمعهم و واقعهم ، لكنهم في مجال آخر ربطوا الأمر ذاته باختلاف مراتبهم في الحياة و منازلهم الشعرية ، إذ منهم الشعراء ذوو البلاط و النفوذ كالملوك و الأمراء الذين أعطوا القضية الخلقية طابعا سياسيا بالدرجة الأولى؛ و منهم شعراء نبذوا الجاه و الثراء فكانوا بسطاء في حياتهم حيث اقتربوا من المجتمع و احتكوا به كثيرا ، فوسموا الأخلاق بسمات اجتماعية صرفة ، و هذا ما يدل على أن أغلبهم كانوا أئمة متضلعين في علم اللغة العربية و علم الشعر ، و فقهاء متمرسين في شريعة الله و بخاصة مع أولئك البسطاء الذين كثيرا ما قربهم ذوو السلطان إليهم لاستشارتهم في أمور يشؤون قصد الاستفادة من آرائهم و نظراتهم. و لذلك كان هؤلاء البسطاء هم الذين أكثروا من نظم شعر النزعة الأخلاقية ، بحكم احتكاكهم الحثيث بمجتمعهم و توجهاتهم في الحياة ؛

وكان ذوو البلاط ممن أقلوا في نظم هذا الفن ، إما لأنهم نظموا في غيره ، و إما لأنهم انشغلوا بمسؤولياتهم السياسية.

و أهم نتيجة نستخلصها هي أن شعراء العصر الزياني قد بلوروا نظرية أخلاقية شعرية عربية و إسلامية ، لا نجزم إن قلنا إنها إنسانية يفيد منها كل إنسان إلى يومنا هذا إضافة إلى أول ما يلاحظه المتصفح لهذا الشعر هو أنه فن عربي له قاعدة مؤسسة على مقياس ديني هو الإسلام لا غير. و لعل من أشهر شعراء النزعة الأخلاقية للشعر الزياني من ذكرناهم في دراستنا آنفا ، و لا بأس أن نذكر ابن ميمون القلعي (-673 هـ) و عبد الحق البجائي (-675 هـ) و عفيف الدين التلمساني (-690 هـ) و ابن خميس الحجري (-708 هـ) و يوسف القيسي (توفي أوائل القرن التاسع الهجري) و محمد المقري (-759 هـ) و أبو حمو الثاني (-791 هـ) و أبو زيان الثاني (-805 هـ) و ابن زاغو المغراوي (-845 هـ) و محمد التواتي (-924 هـ) و غيرهم ممن لهم شعر ذو نزعة أخلاقية تسترعي دراستها و حصر أشعارها زمنا طويلا و جهدا كبيرا ، قد يفضي بالمعني بهذا الأمر إلى كتابة مؤلفات عنه أو على الأقل قد تفضي دراسة هذا الشعر إلى إنشاء ديوان له ، و لم لا ؟ لأن إحياء تراث الأجداد و الاقتداء بمغازيه و عبره رجوع إلى الأصل و تشبث بالأصالة. ثم إن هذه الشيمة هي الهدف الأساس من نزعة الشعراء الخلقية في العصر الزياني و هي النتيجة الأخيرة التي يمكن أن نستخلصها من دراستنا لموضوع النزعة الأخلاقية في الشعر الجزائري القديم – العصر الزياني نموذجا–

و إذا كان الموضوع واسعا ، فإن آخر ما أختم به دراستي له هو أنني حاولت الكشف قدر الإمكان عن الأخلاق من خلال جنس أدبي عربي و إنساني هو الشعر الزياني ، و لو أني

أعتبر هذه المحاولة جزئية مقارنة مع من أراد أن يطعمها ، و ذلك بأن يوغل في دراسة الموضوع كاشفا ما أكون قد أغفلته في مرحلة من مراحل دراستي له.

فهرست المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم – رواية ورش. الناشر : دار المصحف : شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة، 1383هـ/ 1964م .

2- الإحاطة في أخبار غرناطة- لسان الدين ابن الخطيب. مج : 2 ، 3 . تحقيق: محمد عبد الله عنان. الشركة المصرية للطباعة والنشر، ط:1، القاهرة، 1394هـ/1974م .

3- الأغاني – عماد الدين الأصفهاني . ج:16، طبعة دار الكتب، القاهرة، 1393هـ/1973م .

4- أبو حمو موسى الزياني – حياته و آثاره – حاجيات عبد الحميد . الجزائر، 1974م .

5- أبو العتاهية – أشعاره وأخباره –تحقيق : الدكتور : شكري فيصل، دار الملاح للطباعة والنشر، دمشق، (د .ت) .

6- البيان والتبيين – بحر بن عمرو الجاحظ .ج:3 .تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، 1388هـ/ 1968م .

7- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان- محمد بن مريم التلمساني .ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م .

8- الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني – أحمد بن سحنون. المهدي البوعبدلي. منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، 1973 م .

9- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – أبو الحسن علي بن بسام، ج:1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، 1939م .

10- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة – محمد بن عبد الملك المراكشي. ج:1، تحقيق : الدكتور : إحسان عباس. نشر دار الثقافة، بيروت، 1965م .

11- الشعر والشعراء – ابن قتيبة. دار صادر، مطبعة بريل، بيروت، 1902م .

12- العمدة في محاسن الشعر وآدابه – الحسن بن رشيق. تحقيق : محمد قرقزان، ط:1، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م .

13- الكامل في اللغة و الأدب للمبرد . ج:1 . ت: أحمد محمد شاكر. مطبعة مصطفى الباجي الحلبي، ط:1، مصر، 1356هـ/1937م.

14- المفضليات - المفضل الضبي. ج:1.تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون،دار المعارف،ط:3، 1943 م .

15- المطرب من أشعار أهل المغرب – أبو الخطاب عمر بن دحية. تحقيق : إبراهيم الأبياري وجماعة. المطبعة الأميرية، ط: 1، القاهرة، 1954م.

16- المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس- عبد الوهاب بن منصور. مطبعة ابن خلدون،تلمسان،1965م .

17- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- يحي بن خلدون. ج : 1 ، 2 ، 6 ، الجزائر، 1332هـ/1913م.

18- تاريخ الجزائر في القديم والحديث – مبارك بن محمد الميلي. طبع بيروت، 1963م.

19- تاريخ الجزائر العام - عبد الرحمن الجيلالي. ج. 1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. (د.ت) .

20- تاريخ الأدب الجزائري - محمد الطمار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د.ت) .

21- خريدة القصر وجريدة العصر - عماد الدين الأصفهاني (قسم شعراء المغرب) . تحقيق : المرزوقي. المطوي. الجيلالي. الدار التونسية للنشر، ط :1، تونس، 1966م.

22- ديوان ابن الرومي - ج:1 . نجيب الكيلاني – الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1924م.

23- ديوان ابن عبد ربه - تحقيق وشرح : الدكتور : محمد رضوان الداية. مؤسسة الرسالة، دمشق، سوريا، 1979م.

24- ديوان ابن شهيد – جمعه : شارلز بلاط، دار المكشوف.ط :1، لبنان،، 1963م.

25- ديوان ابن زيدون – شرح وتحقيق : كرم البستاني. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1399هـ/1979م.

26- ديوان ابن حمديس - قدم له : الدكتور: إحسان عباس. دار صادر للطباعة والنشر، بيروت،1379هـ/1960م.

27- ديوان ابن خفاجة – دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1381هـ/1961م.

28- ديوان أبي العتاهية – دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1887م.

29- ديوان أبي فراس – دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1910م.

30- ديوان الإمام علي – تحقيق : الدكتور : محمد عبد المنعم خفاجي. دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، (د.ت) .

31- ديوان المتنبي – إبراهيم اليازجي. دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1305هـ.

32- ديوان زهير . دار صادر، بيروت، (د.ت) .

33- ديوان عنترة – دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1978م.

34- ديوان عمر بن أبي ربيعة – دار صادر، بيروت، (د.ت) .

35- ديوان كثير عزة – جمع وتحقيق : الدكتور : إحسان عباس. نشر وتوزيع: دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1391هـ/ 1971م.

36- شرح المعلقات السبع – الزوزني . دار الآفاق، الأبيار، الجزائر، (د.ت) .

37- شرح ديوان الأخطل التغلبي – إليا سليم الحاوي. نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د.ت).

38- شعر لبيد بن ربيعة بين جاهليته وإسلامه – الدكتور : زكرياء عبد الرحمن صيام. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1400هـ.

39- عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب – محمد النيفر. ج:1، المطبعة التونسية، ط:1، تونس، 1351هـ.

40- عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية- أحمد العنبريني- تحقيق : أحمد بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1389هـ/1970م.

41- فوات الوفيات- محمد بن شاكر الكتبي. ج : 2. تحقيق : إحسان عباس. دار صادر، بيروت، 1973م.

42- كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاشرهم من ذوي السلطان الأكبر – عبد الرحمن بن خلدون. ج:7 ، دار الكتاب اللبناني ، 1968 م.

43- لزوم ما لا يلزم – أبو العلاء المعري. مج :1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1381هـ/1961م.

44- لسان العرب - ابن منظور الإفريقي المصري.مج: 10، دار صادر وبيروت للطباعة والنشر، بيروت 1388 هـ/ 1968 م.

45- مختصر تفسير الإمام الطبري.دار الشروق ، 1402 هـ/ 1972 م.

46- مختصر سنن الترميذي. شرحه : الدكتور : مصطفى ديب البغا . اليمامة للطباعة و النشر و التوزيع ، ط : 1 ، دمشق ، سوريا، 1418 هـ / 1997 م.

47- مجموع القصائد والأدعية – السعدي حكار. المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية، ط : 4، الجزائر، 1380هـ/1960م.

48- مجلة الأصالة- وزارة التعليم والشؤون الدينية،مطبعة البعث،العدد: 26، قسنطينة، الجزائر، 1395هـ/1975م.

49- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان – الدباغ أبو زيد عبد الرحمان، ج:1، طبعة الخانجي، مصر، 1968م.

50- نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان- محمد بن عبد الله التنسي. تحقيق : محمود بوعياد. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1405هـ/1985م.

51- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب- أحمد المقري. ج: 9، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ت).

52- نكت الهميان في نمت العميان – صلاح الدين خليل الصفدي. المطبعة الجمالية. القاهرة. 1911م.

فهرست

الموضوعات

الموضوعات	الصفحة
المقدمة.	أ
المدخل : النزعة الأخلاقية في الشعر العربي قبل العصر الزياني.	7
– النزعة الأخلاقية في الشعر الجاهلي.	8
– النزعة الأخلاقية في الشعر الإسلامي.	13
– النزعة الأخلاقية في الشعر الأموي.	24
– النزعة الأخلاقية في الشعر العباسي.	29
– النزعة الأخلاقية في الشعر الأندلسي.	33
الفصل الأول : النزعة الأخلاقية للشعر الزياني في العصر الأول.	39
– النزعة الأخلاقية في الشعر الجزائري القديم قبل العصر الزياني.	40
الفصل الثاني : طبيعة النزعة الأخلاقية للشعر الزياني في العصر الثاني.	69
الفصل الثالث : المقومات الفنية لشعر النزعة الأخلاقية في العصر الزياني.	94
أولا : المعجم الشعري.	95
أ – المفردات.	95
المعجم الاجتماعي.	95
المعجم السياسي.	97
المعجم الطبيعي.	98
المعجم الفلسفي.	99
المعجم الديني.	100

ب – الأبنية و الإيقاع. _____ 101

ثانيا : خصائص الصورة الشعرية و مصادرها . _____ 106

أ – القرآن الكريم. _____ 107

ب – المصادر التراثية. _____ 108

ج – التاريخ العربي الإسلامي. _____ 111

د – الرمز. _____ 116

الخاتمة. _____ 121

فهرست المصادر و المراجع. _____ 129

فهرست الموضوعات. _____ 133